
"الصهيونية"
أنور كامل

الغلاف

للفنان فؤاد كامل

أنور كامل

الصهيـــــونية

الطبعـة الأولى

القاهرة

مطبعة الاعتماد

إلى المجاهدين الأحرار
الذين بذلوا دماءهم فى فلسطين
دفاعا عن قضية العرب

محتويات الكتاب

صفحة

الصهيونية

رجاء أن تقرأ هذا الكتاب

قبل أن تدخل عليه هذا التعديل

ص ٤ س ١٣ : تستبدل كلمة « الديموقراطية » بكلمة « الشعوب »

اليهـــود

القرارات تتخذ لا من جانب القائمين من اليهود بالحركة الصهيونية فحسب بل وأيضاً من جانب أكثر من حزب واحد فى أكثر من دولة كبيرة واحدة (الحزبان الجمهورى والديموقراطى فى أمريكا ... الخ) بضرورة فتح أبواب فلسطين على مصاريعها أمام اليهود يهاجرون اليها من بقاع العالم أكثر مما هاجروا ويكونون فيها وطناً قومياً لهم !

والاحتجاجات تتوالى من الحكومات فى البلاد العربيـة من الدجلة والفرات شمالا إلى وادى النيل جنوباً فى وقت اتجهت فيه هذه الحكومات نحو تحقيق الوحدة العربيـة وشرعت فى التفاهم على خطواتها الأولى. والتصريحات تعلن من الهيئات السياسية فى هذه البلاد يؤيدها من استطاع من اليهود أنفسهم أن يفهم أن المسألة اليهودية لا يمكن أن تحل عن طريق الصهيونية وأن الكفاح من أجل حريات اليهود مرتبط كل الارتباط بالكفاح من أجل حريات الشعوب فى الدنيا جمعاء !

فما الصهيونية ؟ فى أى ظروف نشأت ؟ وما الأغراض الحقيقية التى تسعى اليها ؟

لقد أحيطت هذه الحركة بصور من الغموض ولدتها أساليب الدعاية

الملتوية التى عمد اليها زعماؤها وساعد عليها تأرجح القوى فيما كانت تصدره من تصريحات بين ارضاء الصهيونيين حينا وإرضاء العرب حينا آخر حسب مقتضيات الظروف والأحوال (ظروف هذه القوى وأحوالها بطبيعة الحال) كما ساعد عليها أيضاً نقص الثقافة السياسية فى البلاد هذا النقص الذى أدى بكثير من الناس بل ومن خاصة الناس إلى أن يعتقد أن فى محاربة الصهيونية محاربة لليهود مع أن من بين هؤلاء من يحارب الصهيونية بقوة لا تقل عن قوة محاربة عرب فلسطين أنفسهم لها .

ولهذا فنحن سنحاول هنا (في وقت برزت فيه فلسطين لتحتل مكانها بين مشاكل الساعة) أن نلقى بعض الضوء على المسألة اليهودية متى بدأت فى التاريخ وكيف تطورت مع التاريخ فنرفع بهذا القناع عن وجه الصهيونية الحقيق ، أغراضها الاستعمارية ومدى اعتمادها على القوى الكبيرة ، ونحدد الموقف الصحيح الذى يجب أن يقفه اليهود إذا أرادوا لمسألتهم حلا ، محاربة الصهيونية والوقوف إلى جانب الديمقراطية المناضلة من أجل الحريات ومن أجل بناء مجتمع جديد لا أساس فيه لأى شكل من أشكال الاضطهاد .

العنصرية و « انحطاط » أو « تفوق » الشعب اليهودى

مدرستان متطرفتان : « هتلر — ستريخر » والصهيونية

اليهود أحط بيولوجيا من الآريين ! اليهود أحط بيولوجيا من بقية الشعوب ! اليهود حيوان أحط من الانسان ! صيحة أعلنتها أشد المدارس تطرفا فى الحض على كراهية اليهود وأكثرها عنفاً فى اشعال حملات الافناء ضد اليهود : مدرسة « هتلر ستريخر ». ولكن فى الطرف المقابل مدرسة أخرى لاتقل عن الأولى تطرفا وتعصباً : المدرسة الصهيونية التى يحاول زعماؤها بأساليب قد تقل فى جرأتها وفى صراحتها عن مدرسة « هتلر ـ ستريخر » أن يحيطوا الشعب اليهودى بهالة من التقديس : فاليهود أرقى بيولوجيا من بقية الشعوب ! واليهود هم « شعب الله المختار » ! وإن كان للشعوب أن تحيا فاليهود هم أحق الشعوب بالحياة !

وبين القطبين المتقابلين يثور النقاش بأساليب شبه علمية ولكنها فى الحقيقة أبعد ما تكون عن العلم وفي أثناء هذا وقبل هذا وبعده تفاجئنا الأحداث الاجتماعية بصور من الفظائع هى أقسى ما عرفته البشرية من حملات التأديب والتطهير تشن ضد اليهود فيفنى فيها مئات بل ألوف من أفراد الشعب اليهودى الأبرياء ! فأين الحقيقة ذات الوجه الواحد من هذا كله ؟

الذى لا جدال فيه أن هناك بين الشعوب بعض الفروق وليس يعنينا هنا أن تكون هذه الفروق إلى أسفل أو إلى أعلى وإنما يعنينا فقط أن نعرف

ما إذا كانت هذه الفروق طبيعية ثابتة أى تعينت مرة واحدة لتبقى على ما هى عليه إلى الأبد أم اجتماعية متحركة أى تولدت من ظروف تاريخية معينة لتتغير فى ظروف تاريخية أخرى . والرد على هذا السؤال يجرنا إلى الرد على نظرية العنصرية . فما هذه النظرية ؟ وكيف يمكن أن نفيد من بطلانها فى تحديد موقفنا من كل من المدرستين: «هتلر ستريخر» والصهيونية؟

يرى العنصريون فى عنصر معين يطلقون عليه اسم «العنصر المتفوق» أو « العنصر التاريخى » العلة الجوهرية لتقدم المجتمع . فالتاريخ بأكمله فى نظر هؤلاء معلق على نشاط هذا العنصر المختار الذى لو قدر له ألا يكون لظل المجتمع يرسم خطاه في جمود الحيوانية .

« والعنصر » اصطلاح من أشد الاصطلاحات الموجودة اختلاطاً على الفهم فمضمونه يتغير تبعاً لعلماء الاثنولوجيا كما يتغير تبعا لرجال السياسة أيضا . ونحن نرى إذا تكلمنا من وجهة نظر علم الانسان أن لهذه الكلمة معنيين : فهى تشير إما الى جماعة من الناس ينحدر كل أفرادها من أجداد أولين دون أن يتغير أصلها الأول خلال آلاف الأجيال المتعاقبة بأى اختلاط مع أفراد ينتمون إلى جماعة أخرى وإما إلى جماعة من الأفراد لهم بعض صفات معينة لا توجد عند الجماعات الأخرى (كلون الجلد وشكل الجمجمة وطبيعة الشعر وتركيب الحوض . . . الخ) .

و « العنصر » فى المعنى الأول مجرد خيال لأنه يتضمن إلى جانب نظرية « تعدد الأصل » (البوليجينيزم الجائز تأييده علمياً) الامتناع عن كل اختلاط أو تزاوج بين العناصر خلال آلاف الأجيال من الزوج الأول إلى الجماعة

الحالية وفى هذا استحالة تاريخية (إلا فى بعض القبائل التى تعيش فى حالة عزلة تامة خاضعة لظروف خارجية معينة كما فى استراليا مثلا) .

أما فى المعنى الثانى فان كلمة « عنصر » يمكن أن تستعمل من الناحية العامية . فنحن نستطيع أن نفرق مثلا بين العنصر الأسود والعنصر الأبيض والعنصر الأصفر معتمدين فى هذا على اللون أو طبيعة الشعر . ويمكننا أيضاً أن نفرق بين الناس بشكل الجمجمة فنميز بين العنصر الدوليكوسيفالى (الرأس الطويل) والعنصر البراشيسيفالى (الرأس العريض) والعنصر الميسوسيفالى (الرأس المتوسط) . ونحن نرى من هنا أن لكلمة « عنصر » معنى نسبي وأننا نستطيع فى هذا المعنى وحده أن نتكلم عن وجود العناصر أو الأجناس المختلفة . ولكن هل هذه الأجناس متساوية جميعاً بمعنى أنها تتمتع بصفات طبيعية وعقلية واحدة ؟ لا يمكننا أن نجيب على هذا السؤال إجابة علمية إلا إذا اشترطنا تكملته بتعيين العصر الذى سنقيم فيه المقارنة بين العناصر . ليس هناك عنصر متفوق بطبيعته أو منحط بطبيعته . ليس هناك عنصر خالد التفوق أو عنصر خالد الانحطاط . فهذا العنصر الذى يقف اليوم في مرتبة أدنى من المرتبة التي يقف فيها عنصر آخر من الجائز أنه كان بالأمس أرقى . وذلك العنصر الآخر الذى يسود العالم حالياً من الجائز أن يكون قد مد يده فيما مضى ليستجدى ثقافته من العنصر المسود اليوم . إن العناصر لتبعد من من الناحيتين الطبيعية والعقلية كل البعد عن أن تظل ثابتة . إنها تتطور بصفة مستمرة : إنها تتقدم وتتراجع وتنمو وتضمحل . إن العنصر نفسه ليتغير ومع هذا فان نظرية « العنصر المتفوق » لا تريد أن ترى تداخل العناصر

البيولوجى ولا تريد أن ترى تحولها المستمر . إن العنصريين ليعملون على « تثبيت » العناصر وعلى فصل أحدها وهو العنصر الذى ينتمون اليه لاقامته كعنصر « تاريخى » أى كعنصر يعطى لنفسه حق السيادة وحق استغلال العناصر الأخرى . إن العنصرية ليست شيئاً آخر غير تبرير اضطهاد الشعوب تبريراً يقوم على شىء يشبه العلم ولـكنه ليس بعلم .

وإذن فكل من المدرستين خاطىء : مدرسة « هتلر — ستريخر » عند ما تزعم أن اليهود هم أحط الشعوب بيولوجيا والمدرسة الصهيونية عند ماتزعم —ولو بتستر — أن اليهود هم أرقى الشعوب بيولوجيا . فلاالمدرسة الصيهونية استطاعت أن تمنع الشعوب الأخرى من أن تساهم فى بناء الحضارات ولا مدرسة « هتلر — ستريخر » استطاعت أن تمنع بروز أسماء لمعت فى التاريخ كأسماء أينشتين وفرويد وماركس .

وإذن فمفتاح المسألة اليهودية (وما تثيره من اتجاه نحو الصهيونية أو نحو معاداة اليهود) يجب أن يبحث عنه فى ميدان آخر غير ميدان البيولوجيا : فى الاجتماع والتاريخ أى فى تطورات الوضع الاقتصادى الذى احتله اليهود داخل المجتمع خلال مراحله التاريخية المختلفة وفى تطورات العلاقات الاجتماعية التى نشأت كانعكاس طبيعى لتطورات ذلك الوضع .

اليهود فى التاريخ

فى نظام العبودية وفى النظام الاقطاعى وفى النظام الرأسمالى

المسألة اليهودية ليست مسألة حديثة . إنها ظاهرة قديمة استمرت طوال قرون . والشعور بكراهية اليهود شعور ذو طابع خاص . والتاريخ لم يشهد «شعوراً عنصريا» يضارع الشعور بكراهية اليهود فى مدى انتشاره أو فى طول ماضيه . ومن هنا اعتقاد البعض أن المسألة اليهودية مسألة قائمة بذاتها منفصلة كل الانفصال عن المشاكل الاجتماعية العامة الاقتصادية والسياسية التى تولدت في التاريخ . ولكن ليس أكثر من هذا إمعانا فى الخطأ . فالمسألة اليهودية قد تولدت خلال العصور كانعكاس للظروف الاجتماعية التاريخية التى شاهدتها هذه العصور . فاليهود قد ظلوا يكونون جزءاً من المجتمع منذ حوالى ٣٥٠٠ سنة ومن هنا فان مشاكل اليهود لا يمكن أن تكون منفصلة أقل انفصال عن مشاكل هذا المجتمع . فلنرجع إذن إلى التاريخ .

اليهود فى مجتمع العبودية

كانت فلسطين التى نزحت اليها القبائل العبرية الأولى مركز الطرق التجارة فى العالم المعروف وقتذاك . كانت طريقا ستراتيجيا وتجاريا تمر خلاله القوافل المحملة بأثمن خيرات الهند وشبه الجزيرة العربية . وهكذا اصبحت التجارة عاملا هاماً فى حياة سكان فلسطين القديمة فكان هذا من أهم القوى

المقررة فى حياة اليهود وفى التطورات التى طرأت على الشعب اليهودى .

وكانت فلسطين إلى جانب هـذا واقعة بين القوى الامبريالية فى ذلك العهد : مصر وأشور ثم بابل . فسقطت الدولة اليهودية بين المطرقة والسندان فى سلسلة طويلة من الحروب لم تنقطع بين هذه الامبراطوريات. غزتها أشور فى النصف الثانى من القرن الثامن ق . م . و أسرت طبقتها الحاكمة . ثم غزتها بابل أو بتعبير أدق غزت البقية الباقية منها فى أوائل القرن السادس ق. م . وأسرت طبقتها الحاكمة التى كان يتكون معظمها من كبار التجار والملاك وأصحاب الحرف . ولكن سرعان ما تكيف هؤلاء بالوسط الجديد فساهموا بقسط كبير فى تجارة الامبراطورية . أما من عاد منهم إلى فلسطين ليقيم دولة يهودية جديدة (استمرت وعوامل الانحلال تتجاذبها إلى أن سقطت نهائيا سنة ٧١) فقد وجد فلسطين غير فلسطين . عمها الخراب وقد كانت مركزاً للتصادم بين القوى الامبريالية . وتحولت عنها التجارة وقد شقت طرق جديدة لها شرق البحر الابيض المتوسط وآسيا الصغرى.

فى هذه الظروف تشتت الدولة اليهودية وتحولت إلى جماعات من اليهود أخذت تستقر فى المدن التجارية الكبيرة (فى أنطاكية والاسكندرية ثم فى روما) حيث لعبت العناصر المسيطرة من هذه الجماعات دوراً خطيراً فى التجارة الكبيرة بينما عنى فقراؤها بالتجارة الصغيرة والحرف اليدوية . ومن الواضح أن عملية تشتت الدولة اليهودية وتحولها إلى هذه الجماعات لم يكن حدوثها ممكنا إلا بتوفر هذه العوامل الثلاثة : أولا تغلغل روح المتاجرة فى اليهود وقد كانت فلسطين مركز الطرق التجارة فى الزمن القديم ، وثانيا

تصدع الدولة اليهودية تحت ضغط الامبراطوريات القديمة وقد كانت فلسطين مركزاً للتصادم بين هذه الامبراطوريات ، وثالثا تحول طرق التجارة بعد فتح طرق جديدة لها بعيداً عن فلسطين الأمر الذى دفع اليهود إلى تتبع هذه الطرق حرصا على المصلحة المادية والاقتصادية .

وبعض المؤرخين من بورجوازيي اليهود يرى فى تشتت الدولة اليهودية عاملا مقرراً أول فى نشوء المسألة اليهودية . ولكن ليس أكثر من هذا إمعانا فى الخطأ . فالتاريخ يثبت أن الجماعات اليهودية استطاعت دائما أن توفق ما بينها والنظام السائد فى فترات الامتداد الاجماعى والتوسع التجارى . ويثبت أن المسألة اليهودية كانت لاتبرز إلى حيز الوجود بالمعنى الذى يمكن أن يفهم من كلمة « مسألة » إلا فى فترات التقلص والانكماش .

كانت الأمبراطورية اليونانية فى تلك العصور البعيدة آخذة فى النمو فكان لليهود أن يلعبوا دوراً كبيراً فى التوسع التجارى الذى يتطلبه ذلك النمو ولهذا لم يكن غريباً أن تزداد سرعة الجماعات اليهودية فى التبعثر لتربط ما بين أجزاء الأمبراطورية بشبكة لا تنقطع من المراكز التجارية . ثم مالبثت الأمبراطورية الرومانية أن أخذت هى الأخرى فى النمو فكان للجماعات اليهودية أيضاً لاسيما وقد نمت ثروتها وتضاعفت قوتها أن تلعب دورا خطيرا لا يقل إن لم يزد عن الدور الذى لعبته فى الأمبراطورية اليونانية. كان اليهود يمثلون هنا حاجة اجتماعية تاريخية . ساهموا فى التوسع التجارى بأكبر نصيب وقدموا القروض الضخمة لأمبراطرة الرومان فنحهم هؤلاء من الامتيازات ما نالوه فى ظل الاسكندر . فهل كان يمكن فى مثل هذه الظروف

أن يتولد لليهود شيء يمكن أن تطلق عليه لفظة « مسألة »؟ كلا بطبيعة الحال !

ولكن الأمبراطورية الرومانية (التي كان قد وصل فيها نظام العبودية إلى قمته) قد بدأت في التصدع فبدأ في تاريخها عصر للتقلص الاجتماعي والانكماش التجاري عانت فيه جماهير العبيد الكادحة من استغلال سادتهم المتزايد مالا طاقة لهم عليه فعم السخط وكثرت حوادث التمرد واندلعت الانفجارات الاجتماعية . هنا وهنا فقط عمد هؤلاء السادة إلى اتخاذ اجراءين: الأول التخلص من اليهود وقد كانوا دائنين لجزء كبير منهم والثاني خلق « كبش فداء » من اليهود يتحول اليه سخط الجماهير الثائرة . وهكذا بدأت حملات التطهير ضد اليهود ببدء التصدع في مجتمع العبودية القديم وبعد أن كانت الدولة اليهودية في فلسطين مركزا للتصادم بين امبراطوريات الشرق القديمة أصبحت الجماعات اليهودية مركزا للتصادم بين الطبقات . وهكذا بدأت تتولد لليهود في التاريخ « مسألة » لا لمجرد أنهم تبعثروا في الأرض جماعات جماعات وإنما لأنهم كانوا قد بدأوا في ظروف التقلص الاجتماعي والانكماش التجاري يفقدون وظيفتهم أو بتعبير آخر لأنهم أصبحوا في هذه الظروف لا يمثلون الحاجة الاجتماعية التاريخية التي كانوا يمثلونها فيما مضى.
ولكن هل فنيت الجماعات اليهودية تحت ضغط هذه الحملات ؟ إن شيئا من هذا لم يحدث لأن نظاماً اجتماعياً جديداً كانت أركانه قد بدأت تستقر وتتوطد : النظام الاقطاعي الذى استطاعت فيه الجماعات اليهودية أن تلعب دورا شبيها بالدور لذى لعبته في مجتمع العبودية إبان امتداده وتوسعه .

اليهود فى المجتمع الاقطاعى

أحاط المسلمون بالبحر الأبيض المتوسط فى القرنين السابع والثامن فى الوقت ذاته الذى أخذت تتوطد فيه أركان النظام الاقطاعى فى غرب أوروبا فكان لليهود أن يلعبوا دورا خطيرا فى التجارة بين العالم الاسلامى وأوروبا الاقطاعية. وامتد المجتمع الاقطاعي واتسعت تجارته ونمى نموا إقتصاديا كبيرا ساهم فيه اليهود بقسط كبير حتى بدأ يرتطم بأسوار العالم الاسلامى فاتجه الملوك الاقطاعيون نحو توسيع دائرة ممتلكاتهم واتجه التجار فى البندقية وجنوه وغيرهما من المدن التجارية الكبيرة نحو السيطرة على موانىء آسيا الصغرى وأيدتهم الكنيسة لأنها رأت فى غزو أراضى « الكفار» قوة جديدة وثروة جديدة فادى هذا إلى اندلاع الحروب الصليبية التى استمرت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان (من أواخر القرن العاشر إلى مابعد منتصف القرن الثالث عشر) فكان لليهود أن يلعبوا دورا خطيرا فى هذه الحروب بالاشتراك فى تمويلها وتقديم القروض اللازمة لها .

كان اليهود يمثلون هنا حاجة اجتماعية تاريخية فتمتعوا بحماية الطبقة الحاكمة ومنحهم الملوك والأمراء من الامتيازات ما نالوه فى ظل الاسكندر وفى ظل امبراطرة الرومان فكان منهم الممول والتاجر الغنى موضع ثقة الطبقة الحاكمة وكان منهم المشرف على المالية والحسابات الرسمية وكان منهم جامع الضرائب أما فقراؤهم فقد ظلوا كما كانوا فى المجتمع القديم يعنون بالتجارة الصغيرة والحرف اليدوية . فهل كان يمكن فى مثل هذه الظروف أن

يتولد لليهود شيء يمكن أن تطلق عليه لفظة « مسألة » ؟ كلا بطبيعة الحال !

ولـكن الأمر لم يستمر على هذا النحو . فنمو المجتمع الاقطاعي قد أدى إلى نمو التناقضات الاجتماعية داخل هذا المجتمع . وما أن حل القرن الثالث عشر وفى أعقابه القرن الرابع عشر حتى كانت هذه التناقضات قد أخذت تندلع وتطفو على سطح الأحداث التاريخية بعنف وشدة . صراع بين جماهير الأرقاء الساخطة والنبلاء وصراع بين البورجوازية الوطنية الناشئة والنبلاء . صراع متداخل متشابك بين مختلف الطبقات الاجتماعية بدأ يؤذن بانهيار النظام الاقطاعى وسقوط الطبقة التى تمثله . هنا وهنا فقط لجأت هذه الطبقة الى اتخاذ إجراءين : الأول التخلص من اليهود وقد كانوا دائنين لجزء كبير منها والثانى خلق « كبش فداء » من اليهود يتحول اليه سخط الطبقات الثائرة . وهكذا بدأت من جديد حملات التطهير ضد اليهود ببدء التصدع فى النظام الاقطاعى وهكذا أصبح اليهود من جديد مركزا للتصادم بين الطبقات : بين الأرقاء والنبلاء من جهة وبين البورجوازية الناشـئة والنبلاء من جهة أخرى . ولم ينقذ اليهود من المصير ذاته إلا إلى أجل محدود التجاؤهم إلى البلاد الأخرى التى لم تكن قد وصلت فيها الظروف الاجتماعية إلى ما وصلت اليه فى غرب أوروبا (إلى بولندا وليتوانيا وبعض أجزاء من الروسيا ثم إلى الأمبراطورية العثمانية فيما بعد) . ولم ينقذ اليهود من المصير ذاته إلا فى نطاق ضيق تحولهم الشكلى عن اليهودية واعتناقهم للدين المسيحى كما حدث فى اسبانيا حيث لم يسلم هؤلاء « المغتصبون » أو « المسيحيون الجدد » من يد « التفتيش » .

ولكن هل فنيت الجماعات اليهودية تحت ضغط هذه الحملات ؟ ان شيئا من هذا لم يحدث لأن نظاما اجتماعيا جديدا كانت أركانه قد بدأت تستقر وتتوطد : النظام الرأسمالى الذى استطاعت فيه الجماعات اليهودية أن تلعب دورا شبيها بالدور الذى لعبته فى مجتمع العبودية وفى المجتمع الاقطاعى ابان امتدادهما وتوسعهما .

اليهود فى المجتمع الرأسمالى

أدت سيادة الرأسمالية إلى تحرر اليهود التدريجى فقد بدأ بسيادتها عصر جديد من عصور الامتداد الاجتماعى والتوسع التجارى فكان لليهود أن يلعبوا دورا كبيرا فى هذا الامتداد وفى هـذا التوسع . واشترك تجار اليهود فى هولندا وامبراطوريتها (التى كان قد لجأ اليها عدد كبير من اليهود الفارين من اسبانيا) ثم فى فرنسا وانجلترا وأمريكا بقسط كبير من تجارة العصر فأحس البورجوازيون بفائدة اليهود للدولة البورجوازية وكان من نتائج هذا أن تحطمت أسوار «الجيتو» (أحياء اليهود) تدريجيا ليخرجوا من حياة العزلة إلى حياة المشاركة العملية الهادئة مع جيرانهم من غير اليهود .

وأدى نمو الرأسمالية الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى كسر رباط الجماعات اليهودية فالانتاج الصناعى الكبير كان بدأ فى اجتذاب الأغنياء من اليهود إلى تيار التقدم الرأسمالى أما فقراء اليهود من صغار التجار وأصحاب الحرف اليدوية فقد بدأوا يتحولون إلى صفوف الطبقات العاملة . على أن هذا التحول لم يحدث بطبيعة الحال دفعة واحدة .

ولا بنسبة واحدة فى البلاد المختلفة ومرجع هذا أن الانقلابات الرأسمالية لم تتحقق فى هذه البلاد فى وقت واحد وإنما تحققت فيها فى أوقات مختلفة نتيجة لاختلاف مستوى تقدمها الاجتماعى والاقتصادى . ولعل فى هذا تفسيرا واضحا لحركات الهجرة اليهودية من الشرق (لا سيما من الروسيا) إلى الغرب (لا سيما إلى الولايات المتحدة الأمريكية) حيث كان اليهود قد حصلوا على جميع الحقوق الاجتماعية والسياسية التى كان يتمتع بها بقية المواطنين.

وهكذا اختفت المسألة اليهودية مرة أخري من سطح الأحداث الاجتماعية ووجد اليهود لأنفسهم مكانا يحتلونه فى عملية التقدم الاجتماعى وبدت الرأسمالية الصناعية « الحرة » كما لو كانت قد استطاعت أن تحل المسألة اليهودية حلا نهائياً .

ولكن النظام الرأسمالى كان قد أخذ فى النمو نخرج من مرحلته « الحرة » ليدخل فى مرحلته الاحتكارية : مرحلة الحرب من أجل إعادة تقسيم العالم بين القوى الرأسمالية الكبيرة التى كانت قد وصلت بانتهاء القرن التاسع عشر إلى اقتسام المستعمرات بينها على نحو من الأنحاء . واندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٨) لتغرق العالم بأنهار من الدماء . وبلغ الجنين الاشتراكى دور البلوغ فانفصل سدس العالم بثورة أكتوبر عن الدائرة الرأسمالية ليوطد أركان المجتمع الاشتراكى الجديد وعمت العالم الرأسمالى أزمة اقتصادية كبيرة لم يشهد مثلها التاريخ (١٩٢٩ — ٣٢) فاكتسحت موجة التعطل عشرات الملايين من أفراد الطبقات العاملة لتلقى بهم بين فكى الجوع .

المجتمع الرأسمالى آخذ فى التصدع . التناقضات الاجتماعية تندلع وترتطم فى عنف وشدة . صراع بين البروليتاريا والبورجوازية فى النطاقين المحلى والعالمي وصراع بين البورجوازيين أنفسهم فى النطاقين المحلى والعالمي وصراع بين المستعمرات والدول المستعمرة وصراع بين الاتحادالسوفييتى والعالم البورجوازى . صراع لم يشهد التاريخ مثله !

وإذن فالى « كبش الفداء » التاريخى : إلى اليهود كمركز للتصادم يمكن أن يتحول اليه جزء من سخط الجماهير الثائرة . استمع إلى هتلر وهو يتحدث إلى راوشننج : « ما اليهود إلا ضيف كريم قدمته إلى الديموقراطيات . فالدعاية المضادة لليهود فى جميع البلاد تكاد تكون وسطا لا يستغنى عنه فى مد حملتنا السياسية . ولسوف نرى أى زمن قصير سوف نحتاج إليه لكى نقلب أفكار ومقاييس العالم كله لا بشىء إلا بمجرد مهاجمة اليهودية » !

(The Voice of Destruction, by Dr Rauschning,New York, 1940)

وهكذا بدأت منذ سنة ١٩٣٣ فى أرض ماركس وانجلز أشد الحملات تطرفاً ضد اليهود : فى ألمانيا التى نجحت فيها الفاشية فى الوصول إلى الحكم بأموال كبار المولين والصناعيين أمثال كروب وتيسن بل وبعض اليهود ! (ذكر واحد من هؤلاء اليهود فى حديث له مع ادجار مورر أنه مستعد «أن يساعد الشيطان نفسه لو اقتنع بضرورة قيادة الحرب ضد أكثر المؤثرات تخريباً فى العالم المعاصر : الماركسية ! » — Edgar Mowrer, Germany Puts the Clock Back, Penguin Special, p. 93) لتصبح سلاحا من أقوى الأسلحة التى لجأت اليها الطبقة الحاكمة لسحق الحركات الشعبية. فاليهود

فى نظر الفاشيين هم سبب معاهدة فرساى ! واليهود هم سبب هزيمة ألمانيا ! واليهود هم سبب تضخم النقد ! مساوىء النظام الرأسمالى تنصب على رأس « كبش الفداء » التاريخى ! وتندلع شرارة الحرب العالميـة الثانية لتكتسح العالم كله . وتسقط دول أوربا أمام آلة الحرب الالمانية واحدة بعـد واحدة فيما يشبه النزهة الخلوية . ولـكن سخط الشعوب فى أوزوبا المحتلة لا ينقطع . فالحركات الشعبية تبدأ جزئية هنـا وهناك لتلتقى وتتجمع فى حركة كلية عامة . ويلعب « كبش الفداء » التاريخى دوره التاريخى لتحويل جزء من سخط الجماهير ضد الغزاة الالمان . فتقام أسوار « الجيتو » من جديد وتعلن حملات التأديب والتطهير من جديد وتقام في أوربا لليهود مذبحة جديدة من مذابح التاريخ !

* * *

أولئك هم اليهود فى التاريخ . وتلك هى المسألة اليهودية فى التاريخ . وإذن فما العمل ؟ سؤال تردد على ألسنة اليهود فى كل زمان وفى كل مكان . سؤال أبرزته الظروف الاجتماعية والتاريخية على لوحة المستقبل . وكان فى نشوء الحركة الصهيو نيـة وجهاً خاطئاً من وجهين للرد على هـذا السؤال (الوجه الآخر الصحيح سنعرضه فى نهاية هذا البحث) .

الصهيونية

أو الزحف إلى فلسطين

الزحف إلى فلسطين !

هذا هو الحل الوحيد الذى يراه زعماء الصهيونية للمسألة اليهودية . فاليهودى فى نظر هؤلاء سيظل « تائها » فى بقاع الأرض غريبا بين الشعوب مهددا بشتى أنواع الضغط والاضطهاد ما بقى نظام الأشياء قائما على ما هو عليه ولن ينقذه من هذا الضغط ومن هـذا الاضطهاد سوى الزحف إلى فلسطين : فلسطين الوطن الأول للشعب اليهودى : الوطن الأول الذى قامت فيه الدولة اليودية !

وليس عجيباً أن ينبت فى رؤوس هؤلاء الزعماء مثل هذا الحل. فالشعب اليهودى بالرغم من سقوط الدولة اليهودية قد ظل محتفظا بروح وطنية عالية نمتها الايديولوجية الدينية فى ظروف الاضطهاد التى لاقتها الجماعات اليهودية المشتتة . فالوطنية اليهودية ظاهرة ولدتها أسوار « الجيتو » . ولـكنها لم تتشكل بطابع الصهيونية السياسية المعاصرة (يجب التمييز بين الصهيونية السياسية والحنين الدينى إلى صهيون) إلا خلال تطورات تاريخية طويلة . فما هذه التطورات ؟

« الهسكالا » أو الإحياء اليهودى

كانت آمال اليهود فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر منحصرة في التحرر من الضغط والاضطهاد . وجاءت الثورة الفرنسية

تحررت يهود فرنسا من هذا الضغط ومن هذا الاضطهاد واكتسحت أوروبا موجة من الحروب الثورية حطمت أسوار «الجيتو» فى دولها واحدة بعد واحدة . وكان من جراء هذا أن انعكست «حرية» الثورة الفرنسية ووطنية النظام الرأسمالى الجديد على الثقافة اليهودية فأحيت فيها نهضة جديدة . وأزهرت هذه النهضة التى عرفت باسم «الهسكالا» (Haskalah أى التنوير) فى بولندة وليتوانيا وألمانيا والروسيا . وكان من أهدافها جعل الثقافة اليهودية ثقافة زمنية وتطعيم هذه الثقافة بروح العصر العلمية والعقلية لتنفصل عن الشعور الدينى القديم الذى كان ينزع نحو العودة الى فلسطين . وهكذا دخل الأدب الأوروبى ودخلت الفلسفة الأوروبية فى حياة اليهود فاقبل شبابهم المثقف على جيتى وكانت وفيخته وشلنج وغيرهم من انسانيى العصر . ولم تثر «الهسكالا» فى ذلك الوقت مع أنها كانت مظهرا فكريا من مظاهر النهضة الوطنية اليهودية مسألة انشاء وطن قومى لليهود لا فى فلسطين ولا فى غير فلسطين .

الحرية ! المساواة ! الاخاء ! تلك كانت المصادر الثلاثة الوحيدة التى استمدت منها «الهسكالا» وحيها . لقد كان اليهود فى ذلك الوقت يؤمنون بأن «حرية» العصر قد قدمت لمسألتهم التاريخية حلا لا رجوع فيه ولكن التاريخ أسقط أملهم هذا فى الارض عند ما أثبتت وقائعه أن «حرية» العصر لم تقدم للمسألة اليهودية الا حلا مؤقتا لم يتخط حدود ذلك العصر فبدأ اليهود يتجهون نحو الصهيونية المعاصرة بعد أن رأى فيها اليائسون أملا والساخطون برنامجاً .

الصهيونية السياسية المعاصرة

كان ميلاد الحركة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر أى بتحول النظام الرأسمالى من مرحلته « الحرة » إلى مرحلته الاستعمارية . بل ما هذه الحركة إلا انعكاس لتحول النظام الرأسمالى من « الحرية » إلى الاستعمارية انعكس على النهضة اليهودية فتحولت من « الهسكالا » إلى الصهيونية . ومن البديهى أن انتقال النظام الرأسمالى من مرحلته « الحرة » إلى مرحلته الاستعمارية لم يحدث إلا خلال عملية تطور استمرت سنين . ومن البديهى أيضا أن التحول فى النهضة اليهودية من « الهسكالا » إلى الصهيونية لم يحدث هو الآخر إلا خلال عملية تطور استمرت سنين .

فأنت تستطيع أن تلمح بذور الصهيونية السياسية المعاصرة حتى فى أيام « التحالف المقدس » (تلك الردة الاقطاعية التى أعقبت الحروب النابوليونية) عندما كانت الجموع اليهودية تساهم مساهمة فعلية فى جميع الحركات التحررية التى أدت إلى ثورات سنتى ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . تستطيع مثلا أن تقرأ فى سنة ١٨٤٠ لليهودى الألمانى موسس هيس ما يأتى : « إننا سنظل دائما غرباء بين الشعوب . صحيح أن هذه الشعوب سوف تمنحنا بعض الحقوق بدافع من الشعور بالانسانية والعدالة . ولكنها لن تحترمنا مطلقاً مادمنا قد وضعنا ذكرياتنا العظيمة فى الصف الثانى » . وتستطيع أن تسمع عنه أنه يرى ضرورة التضحية بحركة التحرر اليهودية إذا كانت هذه الحركة تتعارض فى أى

بلد من البلاد مع الحركة الوطنية اليهودية . (A. Sachar, History of the Jews, New York, p. 350) وتستطيع أن ترى فى سنة ١٨٧٣ كيف نمى بيريز سمولنسكين اليهودى الروسى هذه الفكرة وكيف نادى بأن اليهود شعب وأن هذا الشعب فى حاجة إلى وطن ينمى فيه عبقريته وأن هذا الوطن يجب أن يكون فلسطين ؛ وتستطيع أن تحيط فى سنة ١٨٨٢ بما جاء فى كتاب « Auto-Emancipation » (أى التحرر الذاتى) لليهودى الروسى أيضاً الدكتور ليوبنسكر من أن تحرر اليهود لن يتحقق إلا عن طريق إنشاء وطن قومى لهم .

وإذن فاذا قلنا إن الصهيونية السياسية الحديثة قد ولدت فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فان هذا لايعنى مطلقاً أن التفكير الصهيونى لم يتولد فى رؤوس مفكرى اليهود قبل ذلك الوقت وإنما يعنى فقط أن الصهيونية لم تتشكل بالطابع السياسى المنظم أى لم تتحول إلى حركة سياسية منظمة لها برنامج واضح وأهداف واضحة تدور كلها حول بناء دولة يهودية فى فلسطين إلا فى ذلك العقد .

ولكن الوطن القومى لم يتحول من مجرد فكرة تطوف برؤوس زعماء الصهيونية إلى حقيقة سياسية واقعة إلا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٨) فمنذ ذلك الوقت والهجرة اليهودية إلى فلسطين تحدث فى نطاق واسع لم يعرف من قبل (لاسيما بعد وعد بلفور) . والمتتبع لتطورات المسألة يستطيع أن يدرك بسهولة تامة أن هذا التحول لم يكن فى امكان اليهود تحقيقه الا اذا اعتمدوا على القوى الاستعمارية السائدة فى فلسطين أو

التى لها مصالح فى فلسطين . أما العرب فتلك قوة فى نظر هؤلاء لا يعتد بها ولاينبغى أن يحسب حسابها أو ينظر بعين الاعتبار الي آمالها الطبيعية فى تحقيق الاستقلال الوطنى !

التحالف مع القوى الكبيرة

الالتجاء الى القوى الكبيرة ظاهرة تميزت بها الصهيونية منذ اليوم الأول الذى ولدت فيه . فالدكتور هرزل وحى الحركة ومنشئها قد تأرجح فى سياسته بين أكثر من قوة رجعية واحدة . حاول أن يتقرب من السلطان عبدالحميد الثانى المستبد بتركيا وبالامبراطورية العثمانية ومن جوزيف تشمبرلن وزير المستعمرات البريطانية وأحد رسل الامبراطورية ومن ولهلم الثانى امبراطور ألمانيا «الديموقراطي المشار اليه بالبنان » بل ومن فون بليف وزير الداخلية فى روسيا القيصرية ومنظم مذابح اليهود فيها .

أما السلطان عبد الحميد فقد عرضت عليه المساعدة المالية اليهودية مقابل تأييده لمشروع فلسطين ولكنه لم يهتم بالموضوع ومع هذا فان هرزل لم يتردد أيام مذبحة الأرمن عند ما طلب منه السلطان أن يستعمل كافة الوسائل لمنع اثارة هذه المسألة فى الصحافة النمساوية فى أن يقدم كل ما فى وسعه تنفيذاً لهذا الطلب (His Diary, 2nd Volume, 7th May ta 8 th July,1896).

وأما تشمبرلن فقد اهتم بالموضوع ولكنه اقترح أوغنده بدلا من فلسطين فأهمل هرزل الاقتراح لأن أوغندة لا تمثل فى نظر الصهيونيين أراضى فلسطين المقدسة التى كانوا يشعرون نحوها بالحنين الدينى . وأما امبراطور

المانيا فقد كان يعلم أن فريقاً كبيرا من أغنياء اليهود لم ينخرط بعد فى سلك الحركة الصهيونية ولهذا فقد اكتفى بالارساليات الدينية كقناع تعمل من ورائه الاستعمارية الألمانية على توطيد نفوذها فى الشرق الأوسط . وأما فون بليف فقد عرضت عليه الصهيونية كوسيلة لسحب عدد كبير من اليهود من الحركة الثورية ولمساعدة الروسيا للتخلص من هذا « الفائض » اليهودى فراقت له الفكرة وحاول أن يقنع الحكومة الروسية بضرورة استخدام نفوذها لدى السلطان ومع أن شيئاً جدياً لم يتم فى الموضوع فان النشاط الصهيونى قد تمتع فى الروسيا بقسط كبير من الحرية فى الوقت ذاته الذى كانت تضطهد فيه جميع الحركات التقدمية فيها .

وليس عجيبا أن يتجه هرزل هذا الاتجاه . فهو بطبيعة تفكيره عدو من أعداء الديموقراطية ودليل هذا كتابه « The jewish State » (أى الدولة اليهودية) الذى يعتبر انجيلا للحركة الصهيونية والذى تستطيع أن تقرأ فيه أمثال هذه العبارات : « الشعوب أيضا لاتصلح فى الوقت الحاضر لديموقراطية لاحد لها وسوف تصبح أقل وأقل صلاحية لها فى المستقبل» (P.69) . « من المستحيل تكوين سياسة داخلية أو خارجية حكيمة فى اجتماع شعبي . . . ومن هنا فاننى أميل إلى الجمهورية الارستقراطية . . . . إن كثيرا من نظم البندقية يطوف برأسى » (P.70) .

بل العجيب ألا يتجه هرزل هذا الاتجاه . فليس من قبيل المصادفة أن يصدر منه فى ١٠ يوليوسنة ١٨٩٥ خطاب إلى دوق بادن الكبير يجىء فيه : « من الواضح أن قيام شعب محايد على أقصر طريق الى الشرق يمكن

أن تكون له أهمية كبيرة للسياسة الشرقية الألمانية . فأى شعب هو المقصود بهذا ؟ اننى أعنى الشعب المضطر بقوة الأشياء الى الانضمام الى الأحزاب الثورية فى كل مكان » . وليس من قبيل المصادفة أن يكتب فى مذكراته مايأتى وشبيه بما يأتى : « اذا ازدادت شهرة جمعيتنا فان المعادين لليهود سيقومون مع الحكومات بعمل دعاية لها فى الاجتماعات وفى البرلمانات وفى الصحف » (Diary, June 15th) ... « لقد ربح المعادون لليهود . دعهم يتمتعون بهذا لأننا نحن أيضا سنكون سعداء . لقد ربحوا لأنهم كانوا على حق! » (المرجع نفسه) .

ومع أن هرزل لم ينجح مع تشمبرلن فى سنة ١٩٠٢ فان استغلال فكرة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين كان منذ زمن بعيد موضع نظر بعض رجال الدولة فى انجلترا . ففى سنة ١٨٣٨ أنشئت فى القدس قنصلية بريطانية هدف من أهدافها الرئيسية « حماية اليهود بصفة عامة » . واللورد شافتسبورى الذى كان يعارض بشدة فكرة تحرير اليهود فى بريطانيا العظمى عنى عناية خاصة بمشروع استعمار فلسطين عن طريق « أحفاد ابراهيم » . وكثير من المحافظين غيره كانوا يرون الرأى نفسه . إن أدباً سياسيا بأكمله قد نبت فى منتصف القرن الماضى ليعبر عن فكرة اعادة انشاء الدولة اليهودية فى فلسطين .

ولكن التحالف الصهيونى لم يصطبغ بالصبغة العملية الا فى الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ — ١٨) والتناقض بين القوى المتعددة التى كانت تتنازع على اعادة اقتسام العالم فى هذه الحرب هو الذى عجل فى تحقيق هذا

التحالف . ومظهر من مظاهر هذا التناقض كان يتمثل فى انقسام الحركة الصهيونية نفسها الى فريقين : فريق قوى يؤيد ألمانيا ويرى فى هذا التأييد خدمة للقضية الصهيونية وفريق آخر يرى بزعامة الدكتور فايزمان أن خدمة هذه القضية لن يكون إلا بوضع الحركة الصهيونية تحت تصرف بريطانيا بصفة خاصة والحلفاء بصفة عامة . وفى هذه الظروف (ظروف التناقض بين القوتين الكبيرتين) دخل فى حساب لويد جورج وآرثر بلفور (الذى أصبح فيما بعد اللورد بلفور) أن فى تأييد الحركة الصهيونية كسبا للحلفاء بصفة عامة ولانجلترا بصفة خاصة وذلك فى أثناء الحرب وفيما بعد الحرب .

وكان تصريح بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ أحد مواليد هذه الظروف :

« ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وسوف تستخدم خير مافى وسعها لتسهيل تحقيق هذا الغرض على أنه يجب أن يفهم بوضوح أن شيئا ما لن يتخذ للاضرار بالحقوق المدنية والدينية بين الجماعات غير اليهودية الموجودة بفلسطين أو بالحقوق والقوانين السياسية التى يتمتع بها اليهود في أى بلد آخر » .

وهكذا تحقق التحالف الصهيونى على يد بلفور ولم يكن قد انقضى على اتفاقية حسين — مكماهون (يوليو سنة ١٩١٥) التى وعد فيها العرب بدولة عربية مستقلة مقابل مساعدتهم لبريطانيا ضد الأتراك عامان أو أكثر ! ولم تكن المسألة فى نظر السياسة الاستعمارية أكثر من وعود ! « رأس السهم » الاستعمارى يوجه الى قلب الشرق الأوسط ! تلك هى الصهيونية سافرة غير مقنعة !

استمع الى اللورد ملشت أحد المحتكرين الرأسماليين وأحد زعماء الصهيونية فى انجلترا : « ان وجود ثلاثة ملايين من اليهود (فى فلسطين) سوف يزيل الى الأبد امكانية ثورة مسلحة ناجحة تحطم آثار سياسية الانتداب » (Thy Neighbour, 1936, pp. 201—2) (منحت عصبة الأمم انجلترا حق الانتداب على فلسطين فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢). واستمع إلى أوسشكين زعيم آخر من زعماء الصهيونية : « إن فلسطين عربية بحتة معناها أن بريطانيا العظمى سوف ترغم عاجلاً أو آجلا على الرحيل وإن فلسطين يهودية إلى حد كبير معناها تحالف سياسى خالص . . . بين الشعبين اليهودى والانجليزى » (Palestine Review, July 3rd, 1936) . واستمع إلى المجلة الصهيونية فى وقت اضطرت فيه السياسة الاستعمارية تحت ضغط الحركة الوطنية العربية إلى التراجع ولو قليلا فى مسألة الصهيونية: « إننا سنتعاون كما كنا نتعاون دائماً وبالرغم من الفشل سيظل تعاوننا أميناً » (zionist Review November 10th, 1938) . واستمع إلى بن جيريون رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية : « كل من يخون بريطانيا العظمى يخون الصهيونية » ! (المؤتمر الصهيونى الثانى عشر) .

ولم يقتصر مجال التحالف الصهيونى على مسألة فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين مقابل الخدمات التى يمكن أن تقدمها الصهيونية وإنما تعدى هذا إلى تصدير رؤوس الأموال إلى فلسطين . فهناك من بين دعامات الحركة الصهيونية يهود من الانجليز والأمريكان يلعبون دوراً كبيراً فى عالم رأس المال المالى . وقد بلغ ما صدر من رأس المال الانجليزى لتشغيله بفلسطين

٢٠ مليونا من الجنيهات ومن رأس المال الأمريكى ١٠ ملايين من الجنيهات . ولم يمنع تغلغل رأس المال الأمريكى فى فلسطين على نطاق واسع سوى انهيار سنة ١٩٢٩ وما أدى اليه من سياسة استرجاع القروض الأجنبية التى اتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية . أما رأس المال الانجليزى فقد تغلغل بشكل ضخم فى فلسطين وتوطدت أركانه فيها نهائيا بقصد الاشتراك فى عملية استغلال الموارد الموجودة بالبلاد .

ولكن هل نجحت الصهيونية فى تحقيق أغراضها ؟

الجواب بالنفى ! (الكتاب الابيض ١٩٣٩) .

* * *

ومع هذا يتشبث الصهيونيون بالصهيونية ! كأنما ينتظرون تغير الظروف أو لعلهم يأملون الاعتماد على قوة جديدة من القوى الكبيرة (امريكا مثلا) أو يبحثون عن أسلوب جديد من أساليب الكفاح . أما الواقع الاجتماعي والتاريخى الذى ينبيء بأن الحل الصهيونى للمسألة اليهودية حل خرافى من المستحيل تحقيقه فذلك يغض النظر عنه . وأما الحل الصحيح للمسألة اليهودية الذى يتمثل فى كفاح الشعوب من أجل بناء مجتمع جديد لا أثر فيه لأى شكل من أشكال الاضطهاد فذلك لا يعمل له حساب !

واذن فليستمر الزحف الى فلسطين : فلسطين الوطن الأول للشعب اليهودى : الوطن الأول الذى قامت فيه الدولة اليهودية : فليستمر على حساب العرب وضد ارادة العرب !

اليهود والعرب فى فلسطين

منذ سنين عدة والحركة الصهيونية تحاول أن تثبت أنها لا تضر بمصالح العرب المقيمين بفلسطين بل وتحاول أن تثبت أنها تعمل على خدمة مصالح هؤلاء العرب . استمع إلى بن جيريون : « يجب ألا تمس فى أى الظروف حقوق هؤلاء السكان (العرب) . إن « حالى الجيتو » وحدهم من أمثال زنجويل هم الذين يستطيعون تصور امكانية إعطاء فلسطين لليهود بالاضافة إلى الحق فى طرد غير اليهود من البلاد . إن أى دولة لا يمكن أن توافق على هذا . وحتى إذا بدا أن هـذا الحق يمكن أن يعطى لنا . . . فان اليهود لن يكون لهم أى مبرر ولن تـكون لهم أية امكانية فى مباشرة هذا الحق . ليست مهمة الصهيونية أن تطرد السكان الحاليين من فلسطين . واذا كان هذا من أهدافها فانها لن تـكون الا مجرد خيال خطر . . . » (From We and our Neighbours, Speeches and Essays, New York, 1915, (Hebrew .

ألفاظ معسولة !

واستمع اليه فى سنة ١٩٢٠ : « يجب ألا تمس فى أى الظروف أراضى الفلاح . . . فهؤلاء الذين يعيشون من كد أيديهم يجب ألا ينتزعوا من أرضهم حتى ولا نظير أى تعويض مالى » (المرجع نفسه) . وفى سنة ١٩٢٤ : « إن مصير العامل اليهودى مرتبط بمصير العامل العربى . انهما سيرتفعان معاً ويهبطان معاً » (المرجع نفسه) . وفى سنة ١٩٢٦ : « السكان العرب جزء

عضوى لا يمكن أن ينفصل عن فلسطين . انهم متأصلون هنا . انهم يعملون هنا وسيبقون هنا . ومع أنه ليس من المستحيل فى الوقت الحاضر أن تطرد جماهير غفيرة من الناس من بلد ما بمساعدة القوة المادية فان المجانين أو الدجالين السياسيين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يتهموا الشعب اليهودى بأنه يضمر مثل هذه الرغبة » (المرجع نفسه) .

ألفاظ معسولة !

واستمع الى الدكتور فايزمان رئيس المنظمة الصهيونية فى سنة ١٩٢٩ :
« إلى الآن لم تقم حالة واحدة وانى لآمل ألا تقوم فى المستقبل حالة واحدة يطرد فيها عربي من أرضه لا بطريق مباشر ولا بطريق غير مباشر » (من خطاب له فى لندن فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٩) . واذا كان لهذه التصريحات أية قيمة عملية فاننا نستطيع أيضاً أن نشير إلى جابوتنسكى نفسه ممثل جناح الصهيونية المتطرف الذى أعلن غير مرة أن من بين مبادئه الأساسية :
« أولا المحافظة على المساواة فى الحقوق بين جميع المواطنين بغض النظر عن الجنس أو الدين أو اللغة أو الطبقة وذلك فى جميع نواحى الحياة العامة بالبلاد وثانياً جعل نائب الرئيس عربياً فى كل وزارة يرأسها يهودى والعكس بالعكس. . .الخ » (The War Front of the Jewish People, Hebrew).

ألفاظ معسولة !

ولكن ماذا كانت النتائج الحقيقية للنمو الصهيونى بالنسبة إلى عرب فلسطين ؟ بالنسبة الى الفلاح العربى والعامل العربى ؟ هذا ما سنكشف عنه القناع هنا .

يعلن الصهيونيون بنوع من الفخر أنهم قد ادخلوا وسائل الانتاج الحديث فى الزراعة الفلسطينية أى أنهم كانوا عنصرا أكبر من عناصر التقدم فى حياة البلاد . فهل هذا صحيح ؟ الجواب بالنفى ! لأن وسائل الانتاج الحديث لم تستخدم فى فلسطين إلا فى المزارع اليهودية وحدها . أما الفلاح العربى فانه لا يزال يستخدم الأدوات الزراعية القديمة التى كان يستخدمها أجداده منذ مئات القرون . استمع إلى فيلكانسكى : «إن محراث العربى ليشبه محراث اليهود القدماء . بل ومن الجائز افتراض أن المحراث القديم كان أفضل »
(Vilkanski : The Fellah's Farm, p. 18)

إن تقدم التكتيك يضاعف إنتاجية العمل ولكن العربى فى فلسطين لم يفد من هذا التقدم شيئاً . خذ مثلا إنتاج طن من القمح . إنه يتطلب فى المزرعة اليهودية ٥,٢ يوم عمل فى حين أنه يتطلب فى المزرعة العربية ٥٥,٩ يوم عمل أى أكثر من عشرة أمثال . ولا يقتصر هذا الانخفاض على انتاجية الفلاح العربى وحده بل يتخطى هذا إلى انتاجية مواشيه وطيوره أيضا . فبقرة الفلاح العربى تدر فى السنة عدداً يتراوح ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ لتراً من اللبن بينما تدر البقرة فى المزرعة اليهودية عددا يتراوح ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ . والدجاجة العادية فى المزرعة العربية لا تضع أكثر من ٤٠ بيضة فى السنة بينما تضع الدجاجة فى المزرعة اليهودية ما يقرب من ١٥٠ بيضة فى السنة . . . الخ !
. (Dr Borovitz, Economic Survey of Palestine, p. 41)

فالمزارع العربية إذن لم تفد شيئا من الآلية الحديثة التى لم يدخلها اليهود فى فلسطين الا فى مزارعهم الخاصة . يضاف إلى هذا أن الهجرة اليهودية قد طردت عدداً كبيراً من الفلاحين العرب من الأراضى التى كانوا يعيشون عليها بعرق الجبين وأن الاقتصاد الفلسطينى اليهودى قد وقف عثرة فى سبيل الاصلاح الزراعى فى البلاد وذلك على الرغم من تصريحات زعماء الصهيونية الزائفة وعلى الرغم من ألفاظهم المعسولة .

ولقد اضطرت الوكالة اليهودية نفسها فى سنة ١٩٣٠ الى أن تعترف أمام لجنة التحقيق الحكومية بأن ٦٨٨ من المستأجرين العرب قد طردوا هم وعائلاتهم من مزارعهم فى وادى الجسريل (Report of the Jewish Agency forwarded to Sir John Hope Simpson) ومن الجائز أن يكون هذا الاحصاء الرسمى أقل من الواقع بكثير . وإذا أدخلنا فى تقديرنا أيضاً الزيادة المطردة التى طرأت على الاستعمار الصهيونى منذ سنة ١٩٣٠ إلى الآن فاننا لا نبالغ إذا قلنا أن بضعة ألوف من المستأجرين العرب قد فقدوا أراضيهم نهائياً .

« ولكننا دفعنا تعويضاً كاملا عن الأراضى ! » . هكذا يجيب دجالو الصهيونية . فما هذا التعويض الذى يتمشدقون به ؟ إنك لتستطيع أن تقرأ للدكتور جرانوفسكي مدير الخزانة الوطنية اليهودية أن هذا التعويض لم يصل فى المتوسط إلى أكثر من ٤١و٧٠٠ ج . ف عن العائلة (Dr. A. granovsky : Land and the jewish national Fund in Palestine) ومن البديهي أن هذا المقدار لم يوزع بالتساوى على المستأجرين . فبعض

الأسر كان يتقاضى على سبيل الرشوة نسبة أعلى حتى يتغاضى عن الأضرار التى تلحقها الصهيونية بمصالح العرب وبعضها كان يطرد من أراضيه نظير نسبة ضئيلة جدا : يضاف إلى هذا أن ديون المستأجرين كانت تدفع من هذه التعويضات . ولقد جاء فى تقرير اللجنة الحكومية التى ألفت لدراسة حالة الفلاحين فى سنة ١٩٣٠ أن هذه الديون قد بلغت ٢٧ ج . ف فى المتوسط

Report of a Committee on the Economic Conditions of Agr-) iculturists in Palestine etc, jerusalem 1930, johnson-Crosbie .(Report

فهل بعد هذا يمكن أن يسمى هذا التعويض تعويضاً كاملا ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

« ولكن شراء الصهيونيين لأراضى العرب قد وضع فى أيديهم مقادير ضخمة من النقود » . هكذا يجيب دجالو الصهيونية . ولكن من هم الذين يبيعون هذه الأراضى الى الصهيونيين ؟ صغار الفلاحين أم كبار الملاك ؟ أن وادى الجسريل بأكمله يكاد يكون قد اشترى من عائلة واحدة (سرسق) حصلت على هذه المساحات الواسعة من الأتراك فى سنة ١٨٧٢ . لقد باعت هذه العائلة لليهود مساحة من الأرض تشمل ٢٠ قرية بما فيها من سكان وبما عليها من مواشى وطيور . وان سميلانسكى أحد زعماء الصهيونية يقرر أن من ٩٠ إلى ٩٥ ٪ من الأراضى التى بيعت إلى الصهيونيين كانت فى ملك كبار الملاك وان من ٥ إلى ١٠ ٪ فقط كانت فى ملك صغار الملاك (Mr. Smilansky : Zionist Settlement & the Fellah) وعلى هذا فان « المبالغ الضخمة » التى يشير اليها الصهيونيون لم تذهب إلا إلى جيوب

هؤلاء الملاك الكبار. فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن شراء الصهيونيين لأراضى العرب قد وضع فى أيديهم مبالغ ضخمة من النقود؟ كلا بطبيعة الحال! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد!

ولعل فى هذا تفسيراً للمعارضة الشديدة التى جابه بها الصهيونيون قانون حماية المستأجرين وتفسيراً لارتباط التوسع الصهيونى بوجود طبقة من الملاك الاقطاعيين الكبار فى فلسطين. إذ لو كان الفلاح العربى يمتلك الأرض التى يرتبط بها ويعمل فيها مدى الحياة لما استطاع الصهيونيون اغراءه بأية وسيلة من الوسائل على أن يتنازل عنها مقابل أى تعويض مالى. ومن هنا محاربة الصهيونية لأى اصلاح زراعى أو أى تحسن فى حالة الفلاح. وليس أدل على هذا مما جاء فى الخطاب الصريح الذى ألقاه أوسشكين الرئيس السابق للخزانة الوطنية اليهودية فى مؤتمر للمعلمين: «فى هذه البلاد منظمة خاصة تعنى ببيع الأسمدة الكيماوية. إنها تستخدم هيئة بأكملها من المهندسين الزراعيين ينتقلون من قرية إلى قرية ويعلمون الفلاح كيف يسمد أرضه. يضاف الى هذا أنهم يقدمون له السماد بالنسيئة وبشروط دفع سهلة. ومن المؤكد أن هذا النشاط نشاط مدنى طيب. فالفلاح الذى كان بالأمس يكاد لا يستدر من أرضه ربحاً ما أصبح دخله الآن يرتفع سنة بعد سنة. ومن الواضح أن ظروف شراء الأرض ستسوء بتحسن الظروف الزراعية. وإلى جانب هذا فان دعاية ضخمة تبذل بين العرب لتأسيس بنك زراعى يخدم الفلاح ومالك الأرض الكبير أيضا. ولو تحقق هذا فان شراء الأرض سيكون أكثر صعوبة» (امتاز هذا الخطاب بالصراحة التامة

لأنه لم يكن معداً للدعاية الصهيونية العامة) . فهل يمكن بعد هذا أن يقال إن الحركة الصهيونية حركة تقدمية ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

لقد كان فى طبيعة الصهيونية أن تقاطع منتجات الفلاح لأن فى مثل هذه المقاطعة مساهمة فى استمرار تأخر المزرعة العربية عن المزرعة اليهودية ولأنه بغير هذه المقاطعة يكون من العسير على الصهيونية أن تستمر فى التوسع ويكون من المستحيل عليها أن تحافظ على عزلة الاقتصاد الصهيونى وأن تبقى فى البلاد على مستويين للحياة يختلف كل منهما عن الآخر اختلافا تاماً : مستوى يهودى مرتفع (متوسط دخل أسرة الفلاح اليهودى يتراوح بين ١٠٠ ج . و١٥٠ ج . فى السنة) ومستوى عربي منخفض (متوسط دخل أسرة الفلاح العربي يتراوح بين ١٥ج . و٢٥ج . قبل الحرب) . فهذا الفرق بين المستويين (اليهودى المرتفع والعربى المنخفض) فرق ضخم لا يمك عبوره عن طريق التكنيك الحديث وحده ومن هنا فقد كان لا بد م خلق قنطرة جديدة يمكن عن طريقها عبور هذا الفرق . وتمثلت هـ القنطرة فى رفع أثمان المنتجات اليهودية . وهكذا فانك تجد مثلا أن البيضة المستوردة من المزرعة العربية كان قبل الحرب ملين أو ثلاثة ملا فى حين أن بيضة المزرعة اليهودية كانت تباع بستة ملات . وقس على أثمان الخضروات والفواكه المختلفة . . . الخ . فان ثمنها كان أعلى أنتجها اليهود عن ثمنها فيما لو أنتجها العرب . ولكن طرد المنتجات العر من الاقتصاد اليهودى لم يكن من الممكن تحقيقه وأثمانها أقل من أ

المنتجات اليهودية الا بالالتجاء الى وسائل العنف . ومن هنا الحوادث التى كان يصب اليهود فيها الكيروسين على الخضروات والفواكه التى كان يجلبها العرب إلى السوق اليهودية ومن هنا حوادث الاعتداءات المتكررة على الفلاحين العرب من الرجال والنساء الذين كانوا يتجاسرون على اجتياز هذه السوق لطرح منتجاتهم فيها . فهل يمكن بعد هذا أن يقال إن الحركة الصهيونية حركة خدمت الزراعة العربية والفلاح العربى ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيوني لا يقف عند حد !

الصهيونية والعمال العرب

ويعلن الصهيونيون بنوع من الفخر أنهم قد حولوا فلسطين إلى بلاد صناعية . ولكن سؤالا بسيطاً يبرز فى رأس كل عامل عربى : ماذا كان نصيبه من هذا التقدم ؟

إن ١٨٠٠٠ فحسب هم الذين يشتغلون فى الصناعة العربية ومن بين هؤلاء ١٠٠٠٠ عامل . ولعل فى هذا ما يدل على ضآلة المشروعات الصناعية العربية . إن معظم هذه المشروعات لا يضم أكثر من عامل أو عاملين كما أنه ليس فيها مشروع واحد يضم أكثر من ١٠٠ عامل . ورأس مال هذه الصناعة يبلغ حوالى ٢٥٠٠٠٠٠ ج ومتوسط رأس مال المشروع يتراوح بين ٥٠٠ج و٦٠٠ج . إنها صناعة بدائية لم تستخدم بعد الآلية الضخمة كما أن معظمها يقوم على العمل اليدوى (Abramovitz — gelfat : The Arab Economy, P.61, Hebrew) . أما الصناعة اليهودية فان ٦٠٠٠٠ يشتغلون

فيها كما أن انتاجها قد بلغت قيمته ٤٠٠٠٠٠٠ ج . يضاف إلى ذلك أنها مزودة بأحدث وسائل الانتاج .

فالصهيونية لم تعمل إذن على تحسين حالة الصناعة العربية وهذا طبيعي للغاية فالاقتصاد الصهيوني لا يمكن ان يساعد الصناعة العربية فى الوقت ذاته الذى يعمل فيه على مقاطعة منتجات هذه الصناعة مقاطعة تامة وعلى مقاطعة منتجات الفلاح العربي واليد العاملة العربية فى نطاق واسع . إن « المساعدة » الوحيدة التى يمكن أن يقدمها الاقتصاد الصهيونى للصناعة العربية هى المنافسة أى التحطيم . فهل يمكن أن يقال بعد هذا إن الحركة الصهيونية قد حولت فلسطين إلى بلد صناعى ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيوني لا يقف عند حد !

وقد يعطى عدد العمال العرب الذين يشتغلون الآن فى الحكومة فكرة عن مدى انتشار التعطل بين هؤلاء العمال قبل الحرب . لقد كان بعض العمال العرب لا يجد عملا بالكلية وكان بعضهم الآخر لا يجد العمل إلا لفترة معينة من السنة يأتى بعدها فى جحيم التعطل . إن ١٤ مصلحة حكومية قد شغلت فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ عددا يبلغ ١٠٣:١١ من بينهم ٩٠٠٠٠ عامل عربي (الاحصاءات الحكومية) . يضاف إلى هذا ٣٠٠٠٠ من العرب اشتغلوا فى الجيش . أى ان المجموع بلغ ١٢٠٠٠٠ .

إن اليهود لم يستخدموا حتى عندما كانت اليد العاملة اليهودية نادرة أكثر من ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ عامل عربى . ولقد حدث هذا على الرغم من المعارضة الشديدة التي كان يبديها الصهيونيون والتى كانت تصل فى كثير من

الحالات إلى استعمال وسائل العنف . فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن الحركة الصهيونية قد خدمت العمال العرب فى فلسطين ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

ولطالما نادى بن جيريون نفسه بمثل هذه العبارات : « إن العمال اليهود لن يكون فى مقدورهم مطلقاً أن يشتغلوا ٨ ساعات فى اليوم إذا أرغم العرب على الاشتغال ١٠ ساعات أو ١٢ ساعة فى اليوم . إن العامل اليهودى لن يكون فى مقدوره مطلقاً أن يحصل على ٣٠ قرشاً فى اليوم إذا كان العربي يبيع عمله مقابل ١٥ قرشاً أو أقل » (We and our Neighbours, p. 74) . ان « الحستادروت » (Histadrut أو اتحاد العمل اليهودى فى ايرتز اسرائيل) لعلى أتم الاستعداد لقبول جميع عمال فلسطين دون ما تمييز بين الجنسيات أو الأديان » (المرجع نفسه . ص ٧٩) . ولكن المقصود بهذه العبارات المعسولة هو تغطية الحقائق المرة التى ألحقتها الحركة الصهيونية بعرب فلسطين . ففى تل أبيب مثلا حيث يبلغ عدد سكان المدينة ٢٠٠٠٠٠ لا يوجد عامل عربى واحد . والمشروعات الصناعية التابعة للحستادروت تكاد لا تستخدم من العمال العرب أحداً . والتعاونيات المرتبطة بالحستادروت ليس فيها أعضاء من العرب اطلاقا . وعندما تضطر فى بعض الأحايين وكالة التعاقد بالحستادروت (Solel Bonoh) التى تحصل على عقود بملايين الجنيهات إلى طلب عدد من العمال العرب فى عقودها العسكرية والحكومية والبلدية فانها لا تدفع لهم إلا ثلث أو نصف الأجر الذى يدفع عادة للعامل اليهودى. فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن الحركة الصهيونية قد خدمت العمال العرب

فى فلسطين ؟ كلا بطبيعة الحال . ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

الصهيونية والصحة والتعليم بين العرب

ويعلن الصهيونيون بنوع من الفخر أنهم قد ساهموا فى التقدم الصحى والثقافى فى فلسطين العربية . فهل هذا صحيح ؟ من الواضح أن الصحة العامة قد تحسنت فى فلسطين عما كانت عليه من قبل ومن الواضح أيضا أن نسبة التعليم قد ارتفعت فيها عما كانت عليه من قبل . إنها ظاهرة طبيعية اشتركت فيها بلاد الشرق العربى كله خلال السنوات العشرين الماضية . وليس يعنينا هنا أن نبحث إلى أى حد ساهمت الحكومة فى كل من هاتين النهضتين الصحية والعلمية . وانما يعنينا أن نكشف القناع عن نصيب الصهيونية فى هذا التقدم إن كان لها فيه أى نصيب .

هاك بعض أرقام لها دلالة واضحة . فمن بين ٦٥٥١٧٥ شخصا ترددوا على المستشفيات اليهودية فى سنة ١٩٤٠ لم يكن هناك سوى ٢٠٣٨ من المسلمين أى بنسبة ½ ٪ ١ (الملخص الاحصائى لفلسطين ١٩٤١) . فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن الحركة الصهيونية قد ساهمت فى رفع مستوى الصحة العامة بين عرب فلسطين ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيوني لا يقف عند حد !

أما التعليم فإن المدارس اليهودية المتعددة الموجودة بالبلاد لا تقبل الطلبة العرب اطلاقا . ولقد حدث (وفى هذا مغزي عميق) أن ترك أحد الأغنياء وهو كادورى اليهودى العراقى فى وصيته مبلغا كبيرا للتعليم الزراعى

فى فلسطين فأنشأت الحكومة تنفيذاً لرغبته مدرسة عربية الى جانب المدرسة اليهودية فما كان من الصحافة الصهيونية إلا أن ثارت ثائرتها معارضة منها لفتح المدرسة العربية ! فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن الحركة الصهيونية قد ساهمت فى رفع مستوى التعليم بين عرب فلسطين؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

الصهيونية والحركة الدستورية فى فلسطين

لا يستطيع الصهيونيون أن يعلنوا هنا لا بفخر ولا بغير فخر أنهم قد اشتركوا فى الحركة الدستورية العربية . إذ ليس فى مستعمرات الامبراطورية كلها مستعمرة واحدة فيها نظام أوتوقراطى سافر كما هى الحال فى فلسطين . إنها محرومة من أى تمثيل برلمانى بل ومحرومة من أية هيئة استشارية . والحجة التى تتذرع بها الحكومة أمام العرب لعدم تحقيق النظام النيابى فى البلاد تتلخص فى أن الصهيونيين لا يوافقون على تحقيق النظم الديموقراطية فى فلسطين لأنهم سيكونون عند ذلك في الأقلية .

فأية حجة !

إن هؤلاء الصهيونيين أنفسهم يقيمون « حقهم » الباطل فى فلسطين و « حقهم » الباطل فى الهجرة التى لا حد لها إلى فلسطين على قاعدة « الحقوق الديموقراطية » للشعوب ومع هذا ينكرون على الشعب العربى حقه العادل فى أن يكون له نظام ديمقراطى وأن يكون له تمثيل نيابى ! لماذا ؟ لأن الصهيونيين لا يرضيهم أن يكونوا فى الأقلية !

فأية حجة !

منذ ستة وعشرين عاما وفلسطين تحكم بمقتضى القوانين الاستثنائية ! منذ ستة وعشرين عاما وكل شيء جائز في فلسطين ! أن يقبض على أي شخص في أي وقت بناء على أمر الادارة ! أن يلق بأي شخص في السجن لأجل غير مسمى بناء على أمر الادارة ! لا قضاء عادي ولا طرق عادية لتحقيق العدالة ! لماذا ؟ لأن الصهيونيين لا يرضيهم أن يكونوا في الأقلية !

فأية حجة !

إن هؤلاء الصهيونيين أنفسهم يتمشدقون « بتضامنهم » مع الشعوب المكافحة من أجل حريتها (مع الحبشة والصين . . . الخ) في الوقت ذاته الذي يعلنون فيه حربا سافرة في فلسطين على الحركة الديمقراطية ويطلبون فيه أن يحكم عرب فلسطين بيد من حديد ! لماذا ؟ لأن الصهيونيين لا يرضيهم أن يكونوا في الأقلية !

فأية حجة !

لقد تخطى بن جيريون نفسه عندما ذكر في مقال له في سنة ١٩٢٨ : « من أجل المحافظة على السلم في البلاد ومن أجل حماية جماهير الفلاحين من ملاك الأرض الكبار ومن أجل تأمين هجرة اليهود وصيانة حقهم في الوطن القومي يجب استمرار حكم الانتداب » ! نظام أتوقراطي وحماية للفلاح وتوسع صهيوني واستمرار للانتداب ! المتناقضات مجتمعة ! فماذا يمكن أن يسمى هذا ؟ رياء ؟ أم سخرية ؟ أم شر من هذا وذاك ؟ .

* * *

وبعـد !

فتلك نواح أوردناها على سبيل التمثيل لا الحصر !

ولـكن ماذا كان موقف الطبقات العربية من التوسع الصهيونى فى فلسـطين ؟ ماذا كان موقف ملاك الأرض الاقطاعيين ؟ وموقف البورجوازيين ؟ وموقف الطبقات العاملة ؟ إن الطبقات العربية كلها باستثناء بعض المتأرجحين الخونة من أفراد الطبقات العليا ثائرة ضد اليهود فى فلسطين . ولـكن تحديد موقف كل طبقة من هذه الطبقات يحتاج إلى شىء من الاستطراد سنسوقه هنا موجزين .

ثورة الطبقات العربية على التوسع الصهيونى

هوة سحيقة (شرحنا شيئا من تفصيلاتها فيما سبق) تفصل ما بين اليهود والعرب فى فلسطين . ومن هنا تألب الطبقات العربيـة فى مجموعها على التوسع الصهيونى : طبقة ملاك الأرض الاقطاعيين وطبقة البورجوازيين ثم الطبقات العاملة .

أما ملاك الأرض الاقطاعيين فإن أغلبيتهم الساحقة معادية للصهيونيين بل ومعادية لليهود كيهود . إنهم بحكم طبقتهم يكرهون أى تغير يطرأ على حياة البلاد ويتوقون إلى ظروف الماضى وأوضاعه : ظروف النظام الاقطاعى الآخذ فى التصدع . ومن هنا حملات الارهاب والافناء التى يثيرونها ضد اليهود . ولـكن هذا لا يمنع بطبيعة الحـال من وجود فريق من بينهم مستعد لاتباع سياسة التوفيق إما مع الاستعمارية على حساب الصهيونية

وإما مع الاستعمارية والصهيونيـة معا . ومثل من أمثلة الاتجاه الأول جمـال الحسيني الذى أعلن مرة أنه ليسر إذا رأى فلسطين تتحول إلى مستعمرة من مستعمرات التاج مقابل ايقاف الهجرة اليهودية . أما الاتجاه الثاني فان عددا من ملاك الأرض قد تعاون فعلا مع اليهود لأنه رأى فى بيع أراضيه اليهم عملية مربحة . أغنى هؤلاء أنفسهم بملايين قليلة من الجنيهات وما كان يعنيهم بعدهذا أن يطرد المستأجر من أرضه أو لا يطرد منها ولا كان يعنيهم أن يمنع الفلاح العربي أو لا يمنع من الاشتغال بالأرض التى أفلحها قبـل أن تتحول إلى مستعمرة يهودية بعرق الجبين . ويرتبط هذا الفريق بالرأسمالية الناشئة بأكثر من رباط واحد . ومثل من الأمثلة البارزه لهذا الاتجاه عائلة النشاشيبي .

وأما البورجوازيون وأغلبهم من أصـل اقطاعى فانهم تابعون لرأس المال الأجنبي فى معظم الحالات . فالرأسمالية العربية لم تنم بعد النمو الكافى ولم تستقل بعد الاستقلال الكافى اللذين يسمحان لها بأن تضع يدها على مفاتيح الصناعة الفلسطينية أو أن تنزع هـذه المفاتيح من بين يدى رأس المال الاستعمارى . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان الصناعة الخفيفة بأكملها تـكادتـكون فى أيدي الصهيونيين . ومن هنا الصراع الاقتصادى ثم السياسى الذى تخوضه الرأسمالية العربية ضد رأس المال الاستعمارى وضد رأس المال الصهيونى . ولـكن نظرا لضعف الرأسمالية العربية من ناحية النمو الاقتصادى ونظرا لاعتمادها على رأس المال الأجنبي ونظراً لارتباطها بطبقة ملاك الأرض فان أقساما منها يؤدى بهـا كفاحها إلى المساومة ثم إلى

التعاون على نحو من الانحاء .

وأما الطبقات العاملة وهى أدنى الطبقات فى المجتمع العربى فان مقاومتها للصهيونيين أشد وأعنف . وليس هذا من مواليد المصادفة . إنما هو من مواليد الظروف المادية . فالطبقات الدنيا فى المجتمع العربى هى التى لاقت من التوسع الصهيونى أشد أنواع الضغط وأعنف ألوان الاضطهاد . يضاف إلى هذا أنه ليس من مصلحتها ولا من مصلحة فريق منها أن يتبع سياسة المساومة أو التعاون . وأما الاسطورة التى يحاول الصهيونيون إذاعتها فى الخارج من أن هذه الطبقات إن كانت تخوض حربا ضد هؤلاء الصهيونيين فهى تخوض هذه الحرب لا بوحى من نفسها وإنما بايعاز من مهيجى الطبقات الاقطاعية فتلك أكذوبة ضخمة . فالمجتمع العربى يشهد اليوم فى فلسطين حركة شعبية آخذة فى النمو ويشهد بالتالى مقاومة للصهيونية يتناسب عنفها مع ذلك العنف . وتحرر الشعب العربى من ويلات الصهيونية مرتبط إلى أكبر حد بهذه الحركة الشعبية .

لقد كان لزحف اليهود إلى فلسطين رد فعل طبيعى فى عرب فلسطين . فالدعوة إلى الزحف قابلتها دعوة أحد ضد الزحف . وتلك اليوم صيحة كل عربى فى فلسطين : أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين ! صيحة يزكيها الكفاح : كفاح الشعوب العربية جمعاء وكفاح الشعوب المناضلة فى العالم من أجل الحريات . ولسوف يستمر هذا الكفاح كأعنف ما يكون الكفاح حتى يتحقق للشعب العربى فى فلسطين أمل فى الاستقلال والحرية طال سعيه إلى تحقيقه .

ومع هذا يتشبث الصهيونيون بالصهيونية كأنما لايستطيع أن يعيش اليهود إلا فى فلسطين على حساب العرب وضد ارادة العرب ! يتشبثون بها الى حد الجنون وحادث الباخرة « باتريا » ليس ببعيد . فمنذ سنوات قليله نسف الصهيونيون بالديناميت الباخرة « باتريا » وهى محملة بالمهاجرين فى طريقها الى جزيره موريتيوس التى كانت الحكومة البريطانية قد منحتها لهم كملجأ مؤقت ! اما الموت فى قاع البحر واما الخلاص فى فلسطين ! هذا هو الاحتجاج الاجرامى الذى وجهته الصهيونية ضد الكتاب الابيض !

ولكن في هذه الظروف المتعددة : ظروف تأرجح السياسة الاستعمارية بين اليهود والعرب خدمة لمصالحها من جهة وظروف ضغط الحركة العربية المضادة لليهود فى فلسطين من جهة أخرى برزت الى الوجود اسطورة جديدة نادى المنادون بها من بين الصهيونيين بفكرة « الوطن المشترك » أو « الدولة المشتركة » بين العرب واليهود . فماذا يقول أنصار هذه الفكرة ؟ وهل تستطيع دعوتهم أن تقف أمام الأحداث ؟ انها لاتستطيع ولن تستطيع !

الدعوة إلى إنشاء « وطن مشترك » بين العرب واليهود فى فلسطين

السلم والتعاون مع العرب !

« الوطن المشترك » أو « الدولة المشتركة » بين اليهود والعرب !

تلك هى الأسطورة الجديدة التى يعلنها جناح ماكر من أجنحة الصهيونية . ولكن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود أبتعدوا عن فلسطين !

وينطوى هذا الجناح على اتجاهين : الأول تمثله حركة حاشومر حاتسير (Hashoemer Hatsair)التى يؤيدها مايقرب من ٢٠٠٠٠ ناخب والثاني تمثله جماعة صغيرة من البورجوازيين الأحرار أمثـــال الدكتور ماجنيز وكالفاريسكى .

أما الاتجاه الأول فان لسانه الناطق باسمه يحمل هذا الشعار : « من أجل الصهيونية ،من أجل الاشتراكية ، ومن أجل التضامن بين الشعوب». الصهيونية من جهة والاشتراكية والتضامن بين الشعوب من جهة أخرى ! المتناقضات مجتمعة ! فكيف يمكن أن يفسر هذا ؟ استمع الى يارى زعيم الحركة :« وحتى لو تحقق الاتحادالعربى فانه لن يضم إلاهؤلاء العرب الذين يعيشون فى هذه البلاد. فاذا افترضنا أن بهذه البلاد ١٢ مليونا من العرب (يبدو أن الزعيم قد نسى هنا أن يدخل فى حسابه مصر وغيرها من البلاد العربية) فان بالعالم مالا يقل عن ١٢ مليونا من اليهود فى حاجة الى الخلاص الصهيونى . إننا نكافح من أجل حل كامل داخل اطار فلسطين والبلاد المحيطة بها يقوم على قاعدة المساواة بين اليهود والشعوب العربية » ! « إن المشكلة الشاغلة لنا جميعا هى : ما أكثر الطرق عملية أمام اليهود حتى لا يكونوا أقلية فى فلسطين ؟ إننا لا يجب أن نغمض أعيننا عن الحقيقة : عن أن مصيرنا ستقرره القوى الظافرة وأننا لن نستطيع فى مدة يوم واحد أن نحصل على الاستقلال في فلسطين » ! (من خطاب له ألقاه فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ أمام المجلس التنفيذى الصهيونى الداخلى لكى يشرح فيه بعض مبادىء حركته) .

وعلى هذا فان حركة هاشومير هاتسير لا تؤيد فكرة الدولة اليهودية فى فلسطين لسببين : الأول أنها غير قانعة بها . إذ يبدو أن شهيتها أوسع بكثير من شهية الصهيونيين الرسميين . فهى لا تكتفى بأغلبية فى فلسطين وإنما ترغب أيضا فى المساواة العددية بين اليهود والعرب فى فلسطين مضافا إليها البلاد المجاورة . والثانى أنها تخشى أكثر مما يخشى الصهيونيون الرسميون أن يكون من المستحيل الحصول فى مدة يوم واحد على الاستقلال الكامل فى فلسطين . هذا هو جوهر مذهب « الوطن المشترك » أو « الدولة المشتركة » وجوهر « التضامن العالمى » بين الشعوب الذى تدعو إليه حركة هاشومير هاتسير !

واليهود مستعدون بطبيعة الحال أن يعيشوا بسلام مع العرب على هذا الأساس . ولكنهم نسوا شيئاً واحدا . نسوا أن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

لقد وضعت حركة هاشومير هاتسير مقابل البرنامج الصهيونى الرسمى (المعروف باسم تصريح بلتمور والذى يدعو إلى تحويل فلسطين إلى ملك لليهود) هذه النقط: أولا فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية. ثانيا اقامة نظام سياسى فى فلسطين يوضع تحت رقابة دولية تعطى للوكالة اليهودية الحق فى تنفيذ الهجرة اليهودية طبقا لمقدرة البلاد الكاملة على الامتصاص الاقتصادى على أن ينظر بعين الاعتبار الى حالة اليهود بالبلاد الأخرى فى نهاية الحرب . ثالثا منح الوكالة اليهودية السلطة اللازمة لتنمية البلاد وتعميرها (بما فى ذلك جميع الأراضى المملوكة للحكومة والمساحات غير الآهلة بالسكان) خدمة

لمصالح الفريقين مما يجعل الاستعمار اليهودى الكثيف ممكنا وكذلك تقدم الاقتصاد العربي . رابعا اقامة نظام بعد الحرب فى فلسطين يقوم على قاعدة المساواة السياسية بين الشعبين ويمكن الصهيونية من تحقيق أهدافها دون ما عرقلة ويدفع البلاد نحو الاستقلال السياسى داخل اطار « الوطن المشترك » (Against the Stream , Hebrew, Collectlion of articles) . هذاهو جوهر « الاشتراكية » وجوهر « التعاون » بين الشعبين العربى واليهودى الذى تدعو اليه حركة حاشومير حاتسير ! واليهود مستعدون بطبيعه الحال أن يقبلوا التعاون مع العرب على هذا الأساس . ولكنهم نسوا شيئا واحدا . نسوا أن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

وأما الاتجاه الثانى (اتجاه بعض البورجوازيين الاحرار أمثال الدكتور ما جنيز وكالفار يسكى) فانه غير مؤيد بأية حركة واسعة . ومع هذا فان لجماعة الدكتور ماجنيز المسماة « إيهود » (1hud) برنامجا سياسيا يستدعى النظر . استمع اليه فى خطاب أرسله الى محرر الايكونوميست بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٤٤ :

« إن جماعة الايهود تؤيد بشدة اتحاد هذه الأقاليم الأربعة (فلسطين وشرق الاردن وسوريا ولبنان) ليس فقط لأن مثل هذا الاتحاد سليم من الناحية التاريخية وإنما أيضاً بل وأولا لأننا نعتقد أن مثل هـذا الاتحاد يمكن أن يكون عونا باتا لليهود . إن اتحادا كهذا يمكن أن يخلق وسطا أوسع من الجائز أن يعطى للمشكلة الفلسطينية ردا أكرم . فلو تحقق هذا الاتحاد الذى قد يجمع من السكان العرب ما يقرب من خمسة ملايين فان

العرب لن يكونوا فى حاجة بعدها إلى الخوف الذى يخافونه اليوم من أن تكتسحهم الهجرة اليهودية الواسعة. إن بفلسطين اليوم أكثر من نصف مليون يهودى وأكثر من مليون عربى. وما تدعو اليه جماعة الا يهود هو السماح للسكان اليهود أن يبلغوا مبلغ السكان العرب أى أن تعطى الفرصة لنصف مليون يهودى آخر لدخول فلسطين» !

ولكن هل يستطيع الدكتور ماجنيز أن يجيب على هذه الأسئلة ؟

أولا: اذا افترضنا أن هذه الفكرة قد تحققت فما الذى يمنع الصهيونيين من أن يعلنوا خوفهم من الأغلبية العربية داخل الاتحاد ؟ من الجائز أن يقترح الدكتور ماجنيز هنا المساواة بين اليهود والعرب داخل الاتحاد كله. ولكن ما ذا يكون الحل لو رفض العرب ؟ هل سيقترح الدكتور ماجنيز عندها انشاء اتحاد أوسع ؟ ثم ألا يكون هذا توسعا صهيونيا مقنعا ؟

ثانيـــا : على أى أساس يريد الدكتور ماجنيز أن يقنع العرب بأن الصهيونيـة التى خلقت هوة سحيقة بين المجتمعين العربي واليهودى فى فلسطين وذلك عن طريق المقاطعة التامة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سوف تغير اتجاهها فجأة عندما يزداد عدد اليهود بالبلاد ؟

ثالثـــا: إذا كان الصهيونيون يريدون حقا أن يكتسبوا ثقة العرب فهل هم على استعداد حقيقى لتصفية هذه المقاطعة الوطنية بشتى صورها وهل هم على استعداد حقيقى لتأييد المطالب الديموقراطيـة التى يكافح من أجلها الشعب العربى ؟

الجواب على كل هذا بالنفى ! وما من عربى سوف يوافق على دخول

نصف مليون جديد من اليهود لـكى ينضم إلى القلعة الصهيونية المغلقة أما اذا انهارت أسوار هذه القلعة فان هـذا سيكون معناه الموت الطبيعى للفـكرة الصهيونية التى لن تجد لنفسها مكانا خارج هذه الأسوار . إن برنامج الدكتور ماجنيز وشركاه لا يخرج عن أن يكون ايتوبيا خرافية . ثم هو إلى جانب هذا مؤيد مكشوف للسياسة الامبريالية لأنها هى وحدها التى تستطيع أن تقيم التوازن بين الصهيونية وأمانى العرب الوطنية . استمع إلى المقترحات التى قدمتها هذه الجماعة إلى الوكالة اليهودية فى سنة ١٩٣٠ عن السياسة العربية (يلاحظ أن اسم هـــذه الجماعة كان فى ذلك الوقت Brith Shalom Society) :

« أن يكون الوضع السياسى لسلطة الانتداب بالبلاد بشكل يضمن الاستقرار فى العلاقات بين الشعبين الذين يعيشان فى هذه البلاد ويوطد الأمن العام فيها ويحمى حدودها ويحافظ على المصالح الخاصة البريطانية والدولية لسلطة الانتداب فى فلسطين » !

هذا هو جوهر « السلم » بين العرب واليهود الذى يدعو إليه الدكتور ماجنيز وشركاه . واليهود مستعدون بطبيعة الحال أن يقبلوا فكرة « السلم » على هذا الأساس . ولـكنهم نسوا شيئا واحدا نسوا أن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

* * *

« نبتعد عن فلسطين ؟ وإذن فأين يكون الخلاص ؟ » هـكذا يجيب دجالو الصهيونية ! وهلا يكون الخلاص إلا فى فلسطين ؟« كبش الفداء» !

تلك هى مأساتكم التاريخية ! والصهيونية لم تخلق لكم شيئا بقدر ما خلقت منكم فى فلسطين كبشا للفداء . إن مصيركم فى فلسطين لن يكون غير السحق بين المطرقة والسندان : بين الأماني العربية والمطامع الاستعمارية . إن لعنة الأجيال ستنصب عليكم فى قلب الشرق الأوسط فابتعدوا عن فلسطين لأن الخلاص لن يكون في فلسطين !

« نبتعد عن فلسطين ! وإذن فماذا يكون العمل ؟ » . السؤال نفسه يتردد على السنة اليهود فى كل مكان . السؤال نفسه تبرزه الظروف الاجتماعية والتاريخية (على الرغم من كفاح الصهيونية الطويل) على لوحة المستقبل ! وفى كفاح الشعوب العالمى من أجل « الحريات » ضد الدكتاتورية (بشتى صورها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المقنعة وغير المقنعة) وفى وقوف اليهود (فقراءهم لا أغنياءهم) إلى جانب هذه الشعوب وجها آخر هو الوجه الصحيح للرد على هذا السؤال .

الحـــل الوحيد

أو الكفاح العالمي من أجل « الحريات »

خرج النظام الرأسمالي بانتهاء القرن التاسع عشر من مرحلته « الحرة » ليدخل فى مرحلته الاستعمارية كما ذكرنا فيما سبق وانعكس هذا التطور على القومية اليهودية فتحولت من « الهسكالا » إلى الصهيونية ولكن تطور النظام الرأسمالى نفسه واندلاع متناقضاته على سطح الاحداث الاجتماعية والتاريخية وارتطام هذه المتناقضات بعنف لم يشهد التاريخ مثله.. كل هذا كان له انعكاس آخر على القومية اليهودية جعلها تأخذ فى التحول من الوطنية المتعصبة إلى العالمية المتحررة فاندفع كثير من اليهود (فقراءهم لا أغنياءهم) إلى السير فى صفوف « الجيش العالمى » المناضل من أجل « الحريات جمعاء » ومن أجل توليد « المركب الاجتماعى الجديد » .

والاتجاه التقدمى ليس اتجاها طارئا على اليهود . فلقد خرج من بين الجماعات اليهودية وتخطى أسوار « الجيتو » عدد كبير من اليهود كان في طليعة المجاهدين الذين ناضلوا من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية إلى جانب زملائهم من غير اليهود فى جميع الحركات التقدمية . ففى اثناء الردة الاجتماعية التى أعقبت الحروب النابوليونية لعب اليهود دوراً كبيراً فى حركة التقدم التى قام بها البورجوازيون الأحرار . وهنريك هينى الشاعر اليهودى الكبير كان محاربا من المحاربين فى سبيل الحرية . وماركس المنحدر من أصل يهودى هو الذى خلق المادية الديالكتية ليقلب بها ايدولوجية النصف الثاني من

القرن التاسع عشر وفى أعقابه القرن العشرين رأسا على عقب . وثورات سنتى ١٨٣٨و١٨٤٨ لم تخل من الـكفاح اليهودى ولا ثورة أكتوبر ولا الحرب الأهلية فى أسبانيا قد خلتا منه . وإنك لتجد اليوم آلافا من اليهود يقفون جنبا إلى جنب مع الحركات الشعبية في جميع البلاد .

لم يكن إذن هذا الاتجـاه طارئا على اليهود. إنما هو انعكاس طبيعى تولد من أسوار « الجيتو » كما تولدت منها الصهيونية المعاصرة . ولـكن هناك بين الاتجاهين فرقا واحدا ومع هذا فهو كل الفرق . الاتجاه الأول يحرك عجلة التاريخ إلى الأمام والاتجاه الثانى يحاول أن يحركها إلى الوراء . الاتجاه الأول اتجاه ناجح فى الزمن الطويل وإن أصابه بعض الفشل فى الزمن القصير والاتجاه الثـانى فاشل فى الزمن الطويل وإن أصابه بعض النجاح في الزمن القصير !

ومن بين الصهيونيين من يزعم أنه من المؤمنين بالمادية الديالـكتية المـكافحين من أجل « المركب الاجتماعى الجديد » الذى تبشر به ومع هذا يركز جهاده من أجل تحقيق ايتوبيا «الوطن القومى» أو «الدولة اليهودية » وحجته الباطلة أن هذا « المركب الاجتماعى الجديد » لن يتحقق إلا فى المستقبل البعيـــد . وهم يعلنون هذا فى الوقت ذاته الذى يعترف فيه الصهيونيون الرسميون بأن إنشاء الوطن القومى فى فلسطين لن يتحقق فى يوم وليلة أى أنه لن يتحقق إلا فى المستقبل البعيد . فماذا يمكن أن يسمى هذا؟ رياء ؟ أم سخرية ؟ أم شر من هذا وذاك ؟

لقد لاحظ هؤلاء الصهيونيون أن تحول « المركب الاجتماعى الرأسمالى»

من « الحرية » إلى الاستعمارية قد خلق موجة من الحركات الجماهرية المستقلة تعارض هذا «المركب» وتعارض صور الضغط التى تلازمه بحكم التكوين. لاحظوا هذا ولاحظوا أن جماهير اليهود (فقراءهم لا أغنياءهم) قد أخذوا ينضمون إلى هذه الحركات الجماهرية المستقلة بعد أن أدركوا أن الكفاح من أجل حرياتهم ومن أجل المساواة بين اليهود وغير اليهود فى الحقوق مرتبط بل هو جزء من الصراع العالمى الذى تخوضه الجماهير من أجل التقدم سواء فى الاقتصاد أو فى السياسة والذى سينتهى حتما إن عاجلا وإن آجلا «بالمركب الجديد» (مركب الحريات جمعاء) . لاحظوا هذا كله وخشوا على الحركة اليهودية أن تفلت من بين يدى الدعوة الصهيونية فخلعوا على أنفسهم « ثوبا عماليا » مزيفا خدعوا ببريقه بعض عمال اليهود وزعموا أن الطبقات العاملة اليهودية لا يمكن أن توفق ما بينها والطبقات العاملة العالمية نظرا للهوة السحيقة التى خلقتها بينهما الظروف الاجتماعية والتاريخية فأقامت أسوار « الجيتو » وأشعلت حملات التأديب والتطهير ضد اليهود وأدت إلى نوع معين من عدم الثقة بين اليهود وغير اليهود .

واستمرار لهذا الزيف زعمهم الباطل أنهم يؤمنون بنظرية الصراع بين المتناقضات الاجتماعية لا التعاون بينها فى الوقت ذاته الذى ينادون فيه بضرورة ارجاء هذا الصراع على الأقل فيما يتصل بالطبقات العاملة اليهودية إلى ما بعد إنشاء «الدولة اليهودية» التى يستطيع اليهود فيها وحدها أن يتضامنوا مع الشعوب فى كفاحها من أجل الحريات . وهم يقيمون زعمهم هذا على أن الوضع الحالى الاقتصادى والسياسى الذى تحتله الجماهير اليهودية الكادحة

لا يسمح لها بأن تخوض مثل هذا الكفاح . فالتقدم الصناعى قد حطم المركز الاقتصادى الذى كان يحتله مئات الألوف من أصحاب الحرف اليهود ولكنه لم يسمح لهم كما سمح لزملائهم من غير اليهود بالانخراط فى سلك الطبقة العاملة الصحيحة وإنما جعلهم يقتصرون على الصناعات الثانوية (كالحياكة مثلا) دون الصناعات الثقيلة الرئيسية التى تكونت هذه الطبقة فى أحضانها فالهدف المباشر إذن الذى يجب أن يوضع أمام اليهود هو إنشاء « الدولة اليهودية » لأن من هذه « الدولة » وحدها يمكن أن تتكون لليهود طبقة عاملة قوية سليمة تستطيع أن تضع يدها فى يد الطبقة العاملة العالمية . وإنك لتستطيع أن تستشف النهاية الحتمية لكل هذا التفكير : تعاون فعلى بين المتناقضات الاجتماعية نظير وعد بالصراع فى المستقبل . كفاح فعلى من أجل تحقيق « الدولة اليهودية » على حساب شعب آخر نظير وعد بتحطيم هذه الدولة فى المستقبل . فماذا يمكن أن يسمى هذا ؟ رياء ؟ أم سخرية ؟ أم شر من هذا وذاك ؟

فإذا جئت إلى نطقة تحديد المكان الذى يمكن أن تقوم فيه هذه « الدولة اليهودية » فانهم لن يتنازلوا عن فلسطين بالذات . ولكن لماذا فلسطين بالذات ؟ إنهم لا يستطيعون بطبيعة الحال أن يجيبوا على هذا السؤال أجابة منطقية صحيحة . إن بر بوروشوف نفسه (مؤسس حركة العمل الصهيونية الذى يدعى أنه من أنصار المادية الديالكتية) يدور ويدور حول هذه النقطة ولكنه لا يستطيع أن يجيب . إنه يعلن « نظرية » لا يقدم لاثباتها أى دليل مؤداها أن حركة يهودية ضخمة كان لا بد من

أن يقوم بها اليهود نحو فلسطين كانعكاس طبيعى لتزايد الاضطهاد فى ظروف التصادم الحاد بين المتناقضات الاجتماعية فى الوقت ذاته الذى يثبت فيه الواقع التاريخى أن هذه الحركة الضخمة اتجهت نحو أمريكا وانجلترا وغيرهما من البلاد وأن أقلية يهودية هى التى اتجهت وحدها صوب فلسطين !
إن بوروشوف هـذا « الماركسى » المزيف ليتخلى عن المادية الديالكتية ليرتمى فى أحضان المثالية الصوفية إن لم يكن لشىء آخر فلمجرد اصراره على فلسطين !

ولكن إذا كان بوروشوف وأمثاله يرون أن من العسير على الجماهير اليهودية الكادحة أن تساهم فى خوض الصراع العالمى من أجل الحريات فان هذه الجماهير لا ترى هذا الرأى . فالواقع التاريخى يثبت أنها اشتركت فعلا فى جميع الحركات التقدمية التى اندلعت فى روسيا القيصرية والتى بلغت قمتها فى اكتوبر سنة ١٩١٧ ويثبت أنها لعبت ولا تزال تلعب دورها فى أمريكا وانجلترا وفى غير أمريكا وانجلترا من البلاد التى هاجر إليها اليهود فراراً من الاضطهاد الأمر الذى يسقط زعم بورشوف فى الأرض (زعمه أن اشتغال اليهود فى الصناعات الثانوية لا الرئيسية يمنعهم من أن يكون لهم أثر كبير مجد فى كفاح العمال العالمى) . وهل دليل على هذا أكبر من أن الصهيونية لم تستطع إلى الآن بعد هذه الدعاية الطويلة وبعد هذا الكفاح الطويل أن تجر فى أعقابها إلا نسبة صغيرة من يهود العالم ؟ هذه هى الوقائع ولكن الأكاذيب الصهيونية لا تريد إلا أن تتخطى جميع الحدود !

ومع هذا فقد كان للتفكير الصهيونى أثر على جزء من الجماهير اليهودية

الكادحة فى العالم وفى فلسطين. أما فى العالم فان الأثر لا يزال ضيقا محدودا . وأما فى فلسطين فان الأغلبية الساحقة من أفراد الطبقات العاملة اليهودية لا تزال تؤمن بالحركة الصهيونية ولا تزال تكافح من أجل تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة . ومرجع هذا أن لليهود فى فلسطين وضعا « محليا » يختلف عن وضع اليهود فى جميع بلاد العالم . فهم أولا يتمتعون فى فلسطين بامتيازات يتفوقون بها على العمال العرب . فأجر العامل اليهودى يعادل ضعف أو ثلاثة أمثال أجر العامل العربى . والعامل اليهودى يشعر بأن له شخصية نسبية لأن للعمال اليهود منظمة قوية معترف بها من الحكومة ومؤيدة من المنظمات الصهيونية . وهم ثانيا يعيشون فى فلسطين داخل اقتصاد صهيونى مغلق وفى أحضان مجتمع صهيونى بينه والمجتمع العربى هوة بعيدة الغور الأمر الذى كان له أكبر الأثر على تنمية الاحساس « الطائفى » بينهم . يضاف إلى هذا ثالثاً أن حكومات الحلفاء لم تعن على الأقل فى نظر الصهيونيين العناية الكافية بحالة اليهود فى أوروبا الأمر الذى يحمل على تقوية عقيدة يهود فلسطين فى أنه لا خلاص ليهود العالم إلا فى فلسطين . وكذلك رابعا أن القائمين بالدعوة الصهيونية قد نجحوا الى حد كبير فى تصوير الحركة العربية المضادة للصهيونية كحركة موجهة لا ضد الصهيونية وإنما ضد اليهود كيهود الأمر الذى جعلهم يعتقدون أن فى تقوية الصهيونية حماية لليهود من « الخطر العربى » !

ولكنا نشهد اليوم فى رحم الصهيونية جنيناً مضاداً لها ولدته التناقضات التى خلقتها هذه الحركة . ودرجة نمو هذا الجنين بين الجماهير

اليهودية فى فلسطين يرتبط قبل كل شىء بدرجة نمو الموجة المطالبة بالتحرر العالمى العام . فاذا وصلت هذه الموجة إلى القمة واغلب الظن أنها ستصل إليها فى أوروبا وخارج حدود أوروبا فى نهاية هذه الحرب فان الاغلبية الساحقة من الجماهير اليهودية فى فلسطين سوف تترك المعسكر الصهيونى ينعى من بناه على حساب العرب وضد إرادة العرب . أما إذا لم يحدث شىء من هذا ورفض اليهود فى فلسطين تأييد حركة التحرر العربية التى هى جزء من حركة التحرر العالمى العام فان اليهود سيرتمون عندها فى أحضان الاستعمارية التى ستحاول فى ظروف تلك الموجة العامة أن تحافظ على مركزها فى الشرق وليس من البعيد إذا استلزم الأمر أن تلقى بهم ضحية على مذبح « اللعنة الآتية من هذا الشرق » . ولن يكون فى هذه الحال مصير « الدولة اليهودية » خيراً من مصير « دولة الأرمن » التى أقيمت فى نهاية الحرب الماضية لتفنى نهائياً بمجرد تخلى الاستعمارية عن تأييدها .

إن التوسع الصهيونى لهو فى حقيقة أمره نكبة من النكبات التاريخية تحل هذه المرة بالجماهير اليهودية المقيمة فى فلسطين أو الزاحفة نحو فلسطين ولن ينقذ هذه الجماهير من الدمار إلا شىء واحد هو انهيار الصهيونية .

وبعد ا

فنحن نحارب الصهيونية وسنظل نحاربها حربا لاهوادة فيها حتى نشهد مصرعها الأخير : يحاربها العرب فى فلسطين وتحاربها الشعوب العربية فى البلاد العربية ويحاربها جيش « التحرر العالمى العام » (جيش

« التحرر الأفقى ») فى أمريكا وفى انجلترا وفي أوروبا وفى كل بقاع الأرض وإنك لتجد من بين الجماهير اليهودية الكادحة نعنى الفقراء لا الأغنياء فى صفوف هذا « الجيش » عدداً كبيرا آخذا فى النمو والازدياد .

نحاربها هذه الحرب لا لأن بها كراهية طبيعية نحواليهود وإنما لأننا نعتقد واعتقادنا مستمد من الواقع الاجتماعى والتاريخى أن الصهيونية حركة استعمارية مركبة (استعمارية بحكم أهدافها الذاتية واستعمارية لاستخدام القوى الكبيرة لها) وأن نجاح « الجيش الأفقى » يتطلب القضاء النهائى على هذه الحركة .

نحاربها هذه الحرب لا لأن بنا كراهية طبيعية نحو اليهود وإنما لأننا نعتقد واعتقادنا مستمد من الواقع الاجتماعى والتاريخى أن الصهيونية حركة ولدتها أسوار « الجيتو » أو التناقضات الكامنة فى « مركب اجتماعي » آخذ فى التصدع وأن نجاح القوى التقدميه فى توليد « المركب الجديد » وهو « مركب » لن يبقى على سور واحد من هذه الأسوار يتطلب القضاء النهائى على هذه الحركة .

نحاربها هذه الحرب لا لأن بنا كراهية طبيعية نحو اليهود وإنما لأننا نعتقد واعتقادنا مستمد من الواقع الاجتماعى والتاريخى أن الصهيونية حركة تعمل على تضليل « جيش اليهود الأفقى » وتوجيه كفاحه إلى غير وجهته المنطقية الصحيحة بابعاده عن موجة « التحرر العام » وأن نجاح هذه الموجة فى تحطيم جميع القوى الرجعية يتطلب القضاء التام على هذه الحركة .

وواجب اليهود اليوم (وليس يعنينا من اليهود إلا فقراءهم) أن يتخلوا نهائياً عن المعسكر الصهيونى سواء فى فلسطين أوفى غير فلسطين وإلا فان نكبة كبيرة من نكبات التاريخ قد لايدركون اليوم مداها سوف تنصب فوق رؤوسهم عاجلا أو آجلا فى قلب الشرق الأوسط!

فيا أيها اليهود فى أنحاء العالم ابتعدوا عن فلسطين!

مصادر البحث

أولا : مصادر لم يرد ذكرها فى الكتاب

اعتمدنا الى حد كبير على مرجعين :

1— Rennap : Anti — Semitism and the Jewish question.
2— Socialists of Palestine : The Truth about Zionism (Open Letter to members of the British Labour Party).

ثانيا : مصادر ورد ذكرها فى الكتاب

أشير الى كثير منها فى المرجعين السابقين ولم نذكرها نحن فى بحثنا إلا بعد أن حققنا مانسب إليها :

كتب

3— The Voice of Destruction, New York 1940 Dr. Raushning.
4— Germany Puts the Clock Back, Penguin Special, Edgar Mowrer
5— History of the Jews, New York, A Sachar.
6— Auto-Emancipation, Dr. Leo Pinsker.
7— Diary of Dr Herzel.
8— Thy Neighbour, 1936, Lord Melchett.
9— The Jewish State, Dr Herzel.
10— We and Our Neighbours, Speeches and Essays, New York 1915, Hebrew, Ben Gurion.
11— The War Front of the Jewish People, Hebrew, Jabotinsky.
12— The Fellah's Farm, Vilkanski.
13— Economic Survey of Palestine. Dr Borovitz.
14— Land and the Jewish Construction in Palestine, Dr A. Granovsky
15— Zionist Settlement and the Fellah, Mr. Smilansky.
16— The Arab Economy, Hebrew, Abramovitz-gelfat.
17— Against the Stream, Hebrew, Collection of Articles.

خطابات

18— From Herzel to the grand Duke of Baden, July 10th 1895.
19— From Dr Magnes to the Editor of the «Economist», 31/1/1944.

خطب

20— Ben Gurion, 19th Zionist Congress.
21— Dr Weizmann, London, December 11th 1929.
22— Yaari, before the Inner Zionist. Exec. Council, Nov. 10th 1942.
23— Ussishkin, At a Teacher's Conference.

مجلات ومقالات

24— Zionist Review, November 10th 1938.
25— Ben Gurion, Article, 1928.
26— Palestine Review, July 3rd 1936, Ussiskkin.

تقريرات

27— Report of the Jewish Agency forwarded to Sir John Hope Simpson, 1930.
28— Report of a Committee on the Economic Conditions of Agriculturists in Palestine, Jerusalem 1920, Johnson—Crosbie Report.

معاهدات واتفاقيات وتصريحات

29— The Balfour Declaraition, November 2nd 1917.
30— The Hussein-McMahon Agreement, 1915.
31— The Sykes-Picot Agreement, 1910.
32— The Biltmore Declaration (Official Zionist Programme).
33— The White Paper, 1939.

احصاءات

34— Statistical Abstract of Palestine, 1941.

للمؤلف

مشاكل العمال فى مصر . . . . فى أغسطس سنة ١٩٤١ .

مجموعة مجلة التطور . . . . . . بالاشـــتراك مع فريق من الكتاب الماركسيين . صدرت فى سنة ١٩٤٠ من يناير إلى سبتمبر .

الكتاب المنبوذ . . . . صدر فى أغسطس سنة ١٩٣٦ .

الناشر

دار المطبوعات الشعبية
١٠ شارع علوى
بالقاهرة



الثمن
١٠ قروش